مندوب الشيطان

وائل رداد

رواية



المجموعة الدولية
للنشر والتوزيع



رواية

مندوب الشيطان

وائل رداد





مندوب الشيطان

وائل رداد

الطبعة الأولى: ينايـــر
1438هـ 2017م

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية
دار الكتب المصرية
رداد، وائل
مندوب الشيطان
وائل رداد - القاهرة: سما للنشر والتوزيع، 2017
224 ص؛ 13,7×19,5سم - (مندوب الشيطان)
تدمك 978-977-781-099-9
1 - القصص العربية.
أ. العنوان 813
رقم الإيداع: 2017/16675
تدمك 978-977-781-099-9



دار سما للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية
15 ش يوسف الجندي متفرع من شارع البستان - باب اللوق - القاهرة
تليفون: 24517300 202+ - 01271919100 2+
emil: samanasher@yahoo.com
publishing@sama-publishing.com

التوزيع
المجموعة الدولية
للنشـــر والتوزيـــع

80 ش طومان باي - الزيتون - القاهرة - جمهورية مصر العربية
تلفاكس: 24518068 202+ - 01099998240 2+
emil:aldawleah_group1@yahoo.com

التنفيذ الفني



ali@daraj-eg.com



مندوب الشيطان

وائل رداد



«الفرق بيني وبين المجنون

أني لست مجنونا !»

سلفادور دالي



الجزء الأول





الفصل الأول

ماكينة صنع القهوة العمومية محطمة..

الناس تجمهروا، امتعاضات متباينة على الوجوه..

هذه الماكينة ملكيـة جماعية، موظفون كثر يعتمدون عليها لابتياع الكافيين اللازم للإفاقـة؛ قبـل أن يسـتقلوا الحافلات التي توصلهـم إلى شركاتهم توطئـة لنهار مفعم بالأعـمال.. ممرضات وسـكرتيرات وموظفات بنوك أظهرن تألما صادقا وأبصارهن متشـبثة بعلامة «نسـتلة» التجارية التي صارت حطاما، تماما بمنتصف القدح الأحمر المصقول، صورة مثالية لشيء كان يجدي نفعا قبيل تحطمه المؤسف..

- «هذه جريمة لا تغتفر!»

أرجحت الأكثرية برؤوس موافقة.. هذه جريمة حقيرة، كان الاعتماد على ماكينة صنـع القهوة من الأمور الأساسـية قبل بـدء صباح مملوء مهاما حياتيـة مألوفة، فهي الوحيدة على ناصية محطة الحافلات هنا..

إن لتحطمها مغاز كثيرة مقلقة، رسالة للحكومة.. مفادها أنهم كانوا هنا!



والأهم والأدهى أن الحكومة ستتردد قبل وضع واحدة جديدة في تلك البقعة.. كان التجمهر البشري على علم بذلك، مم دعاهم إلى إظهار مزيدٍ من الحنق والازدراء لهذا التخريب غير المسئول..

- «وصل المندوب!»

الأبصار متعلقة ببطاقة البرونز ذات الخط العريض الفضي على طرفها والصورة الشخصية المربعة، بأكثر مم تعلقت بوجه صاحب الصورة ذاته، كما لو كانوا يتأكدون من صحة البيانات وتطابق الملامح، فقد زادت حالات تزوير بطاقات المندوبين، ربما لم يكن الاكتفاء بالتأكد من الملامح بحل، وعلى العموم لن يظهر مندوب مزور الهوية لأجل ماكينة قهوة محطمة ما لم يكن حقيقيا ومنتدبا من الحكومة للبت بالقضية..

البطاقة تشق التجمهر العريض كنصل السيف، الكل يتراجع أمام ذلك المستطيل البرونزي الذي حملته أصابع ذات مسؤولية كبرى.. المندوب يمثل أعلى سلطة، حتى وإن كان من الدرجة الخامسة التي تحضر لمعاينة حادثة كتخريب ممتلكات عامة..

- «أفسحوا الطريق للمندوب!»

والرجل صامت، بدا مثالا لهيبة الحكومة بحقيبته «السيمسونايت» وحلته باهظة الثمن، ارتدى ربطة عنق مزدانة بمكعبات ودوائر كالفقاقيع، كما لو كانت مصنوعة في مرسم للفنون التشكيلية، ومن النادر أن تجد مندوبا لا يرتدي نظارة طبية، كما لو ان أولئك القوم يغرقون في كومة من الملفات المخزنة على أجهزة حواسيبهم، والعمل يتم عن طريق إلصاق أبصارهم بالشاشات حتى تضعف، مع أصابع متراقصة طيلة الوقت على مفاتيح «الكي بورد» كعازفي البيانو..

لا شرطة سوى لتطويق ساحة الجريمة، فالمندوب متكفل بالمهمة، وباستخدام مفكرة الكترونية سيتم نقل التقرير كاملا إلى فرع الشرطة الذي قام باستخدامه، مع نسخة تضاف إلى ملفات شركة «مندوبك» العالمية، كل هذا لتحديد مدى كفاءته طبعا..



كان الازدحـام خانقا، ورغم ذلك لم يطلب المندوب منهم الرحيل كأنما يسـتمتع بمكوثهم حوله..

بخبرة سـنين عديدة يتفحـص الماكينة، المفكرة تحوي كذلـك آلة تصوير متطورة، تظهر الصورة مع أي بصمات عالقة، كان تخمينه الأولي ألا بصمات على آثار التخريب المتعمد، وفي حال نوبة غضب سيظهر شيء ما حتما..

آلـة التصويـر فريـدة من نوعهـا، بإمكانهـا إظهار ضربـة راحة الكـف، أو لكمة الأصابع المحتضنة ذات العظام البارزة، ثم يجيء دور تحليله لتحديد ماهية الضربة في حال لم تسجل آلته صورة ضربة بشرية، وفي حالته تلك مع ماكينة صنع القهوة لم يجد بصمات أو آثار ضرب عادية بيد بشرية..

هكذا، ينتقل للمرحلة التالية، تفحص آثار التحطيم نفسها.. هل بأداة معدنية أم خشبية؟ هل بالرفس أم بإلقاء زجاجة مياه غازية؟

إذا وجـد آثـار دم دونما بصمات كف أو قبضة فالمرجح أن تكون الضربة ناجمة عن طريق جبهة الرأس، بعدها يجيء دور الشـهود، إذا رأى أحدهم شـيئا تحل قضية هينة مثل هذه على الفور..

لكـن أدوات البحث لدى المندوب صارمة، أولا البحث والمسـح وتدوين تقرير أولي، ومن ثم استنطاق الشهود، وبالتأكيد الكل مرغم على التعاون ما إن تشهر تلك البطاقة البرونزية ذات الطرف الفضي والصورة أمامهم.. المندوب من أهم الوظائف عـلى الإطـلاق، راتب مجز وضـمان صحي ومركبة للتنقل وشـقة للسـكنى، مع مزايا أخرى عديدة متعلقة بالعلاوات والمكافآت وراتب التقاعد بالطبع..

وفي حـال مقتـل أحدهم في حادثـة ما تتحـول القضية إلى أمن الدولـة، حتى يتم إثبـات موته، وقد يتم الاعتداء عـلى مندوب أثناء أدائه وظيفته، لكن الأمن غير ملزم بحراسته، رغم أن الشركة العالمية لاستقطاب المندوبين تنص على أن المندوب «رجل



الدولـة»، سـواء أكانـت مهامـه في التحقيقـات المتعلقـة بالجرائم، أو بإعداد مراسـم الزفاف أو إنهاء أوراق معاملات الطلاق، فالشركة مسـئولة أولا وأخيرا عن سـلامة مندوبيها، وتلك السـلامة مقتصرة على حمل كل فرد منهم سـلاحا يذود به عن نفسـه في حالات الخطر، فالحوافز والمؤهلات كلها بلا فائدة ترجى ما دام الاعتماد قائما على خدمـات الحكومة لتوفير الحماية والرعاية للمندوبين، فالحكومة تدفع بسـخاء لأجل خدمـات الشركة العالميـة، وتتوقع منها أجود النتائج، لـذا تتكفل الشركة بكل شيء، فيتم انتقاء المندوب بدقة بعد اختبارات عديدة بشـأن التخصص الذي تم اسـتقطابه فيه، ثم تدريبه على بعض سبل الحماية في ميدان الرماية..

هذا كل شيء، والرواتب المجزية مع المكافآت والعلاوات والحوافز كفيلة بجعل لعاب المندوب يسيل، وإن كان يخوض مخاطرة قد تكلفه حياته..

بعدهـا، يبدأ عمله متسـلحا بمسـدس مـن طـراز Makarova.Pm يحمل في خزانه ١٢ طلقة ومخفي في جراب أسفل الإبط، ومفكرة الكترونية متعددة الوظائـف، حيث يتوقعون منه الأفضل والأفضل دائما، ولا يرضون عن الأفضل بديلا..

فرغ المندوب من عمله أخيرا..

كان يتفحـص كاميرته بعد تصويـره ماكينة صنع القهوة المحطمة عدة مرات من زوايا مختلفة، قائلا ببرودة عملية:

- «هذا يكفي للآن..»

وانسـحب بخطـوات عملية كذلك ومسرعـة، تتابعه أنظار الحشـود الملتفة، قبيل معاودتها تحديج الآلة بنظرات معبرة عن الأسف على ملكية الدولة العمومية التي حطمها بعض الحمقى الثائرين للاشيء!



الفصل الثاني

كثيرة الأسباب المؤدية إلى طرد مندوب، كما أنها موثقة ومعتمدة من كافة الوزارات، وقبل تسلم أي مندوب جديد مهامه يتوجب اطلاعه عليها قبل التوقيع على نسخة مختومة تحفظ في ملفه..

شهريا، تتم مراجعة ملفات المندوبين، كل واحد يدرك أن عليه تدوين كل شاردة وواردة في تقريره، ثمة لجنة مختصة بمراجعتها والتأكد من صحتها، يشرف عليها مجلس إدارة منتخب سنويا في الشركة العالمية، يهمه الاطلاع على كل حرف ورد في كل سطر داخل كل تقرير، وعلى أساس اجتماعاتهم وقراراتهم يتم منح الحوافز والمكافآت وحتى الطرد.. لا ترقيات لأن المندوب يظل مندوبا، لكن سبل عيشه تصير أكثر راحة ورفاهية..

وظيفته هي الحياد بالمعنى الحرفي للكلمة، لا يجوز له التدخل في أية مناسبة إلا في نطاق عمله، ويتم استجواب جميع من احتك بهم للتأكد من قيامه بمهامه على أكمل وجه دون تدخل مباشر منه، فإذا حاول الإصلاح مثلا ما بين زوج وزوجة يبغيان الطلاق اعتبر ذلك تدخلا منه، إذا صدمت سيارة طفلا وكان قريبا من موقع الحادث أثناء عمله، وتدخل

لإجراء إسعافات أولية مثلا، فتلك حالة أخرى تستوجب تدخلا سريعا ومباشرا من مجلس إدارة الشركة العالمية لتجهيز أوراق طرده.. وفي مثل تلك الحالات يحرم من كل شيء!

إذن الطرد كابوس المندوب كأية وظيفة أخرى، فلماذا طرد عدد كبير منهم بالآونة الأخيرة؟

«المندوب شخصية مثيرة للجدل»!

كانت هذه افتتاحية إحدى صحف الصباح، إذ يتم انتقاؤهم حسب شروط معينة، ثم يتكفلون في «مندوبك» العالمية بطمس ملامح تلك الشخصية حسب أهوائهم، فالمهم هو مندوب يقظ يهمه أداء العمل قبل المادة، لكن وفق لوائح صارمة تمنعه من تدخلات كتلك الأمثلة التي عددناها سابقا..

إنه شخص حيادي، يراقب المشاجرة ويسجِّل ملاحظاته دون تدخل منه، فذلك يكلفه دون أدنى شك وظيفته عزيزة المنال، المحترف في هذا المجال هو شخص سريع الأداء والبديهة، حاد البصيرة، شخصيته أقرب لموظف التأمين الذي كان سائدا في السابق، قبل بزوغ نجم المندوب وتكفله بكل شيء..

كل فرد عازب أو رب أسرة يعي أن مسؤوليات الحياة الجديدة يجب إلقائها على عاتق مندوب، لكل شخص حرية توظيف واحد، حتى المثلي والسحاقية والقواد! فإذا اختاروا ألا يفعلوا وقعوا بمشاكل جسيمة وتعقيدات لا حصر لها..



القوانين صارت أعقد بهدف الربح المادي بالطبع، والأرباح مناصفة ما بين «مندوبك» العالمية والحكومة التي استغنت عن نظام الضرائب، ما دام الربح في هذه الحالة أكبر وأسرع..

إن لتلك البطاقة البرونزية سحر عبارة «افتح يا سمسم»، فهي تخول المندوب دخول الأماكن المحظورة على العامة، أصحاب المهن والمشاريع والتعاملات مع البريد أول الباحثين عن مندوبين، وإلا توقفت أعمالهم في وزارات العمل ومكاتب البريد، الأطباء بحاجة للمندوبين لمراجعة وزارة الصحة، وزارة المالية والشؤون الداخلية لا يلجها شرطي حالي أو حتى متقاعد إلا لأجل القضايا، أما إذا ما تعلق الأمر به شخصيا فلا بديل سوى المندوب!

حتى وزارة التعليم وإدارة الجامعة، لا يحق لطالب مراجعتها إلا بمندوب، لذا، يمكن رؤية اللوحة القبيحة كاملة دون مداراة لشوائبها، مندوبك مثل كيانك، أنت بلا مندوب إذن أنت شبح هائم!

مجرد شبح هائم..

هكذا، وذات شتاء ثلجي كئيب، أضحى (سياف) مجرد شبح هائم آخر..

في غمضة مقلة، طارت الشقة الفاخرة والسيارة والراتب الذي منحه بحبوحة العيش لأكثر من خمسة أعوام، طار كل ذلك بسبب تدخل منه..

المندوب يجب أن يظل دائما وأبدا على الحياد..

لكن تدخله السافر حوّله إلى بطل في أعين البعض من أولئك الذين احتفظوا بإنسانيتهم، حتى الصحافة بدت متعاطفة قليلا معه، صار بطلا



مدة من الزمن قبل نسيان أمره، فعاد منبوذا لا يكترث لحياته أو لموته أحد..

منذ تلك اللحظة و(سياف) في صراع داخلي مرير مع ذاته.. أتراني فعلت الصواب؟ هل تدخلي كان حماقة؟

لقد تحولت الشقة الفاخرة في بناية «العاج» الشبيهة بفندق السبع نجوم إلى غرفة حقيرة يؤجرها يهودي أحقر من «السالونيك»، فقد عاد اليهود وبشدة في ذلك العام، ولكن بسلطة أكبر وأكبر عن ذي قبل، بل وباتوا أقرب إلى تحقيق حلمهم المتمثل بوطن من الفرات إلى النيل!

كان التغلغل الأوسع لأصحاب العقارات الذين رفعوا أسعارهم أضعافا مضاعفة، الحكومة رحبت بهم، والمجتمع قرر ألا ينبذهم حتى لا يصيروا هم عرضة للنبذ! ومن بين هؤلاء وجد (سياف) نفسه مضطرا إلى مهادنة واحد كي لا ينام في الشارع، فحظي بغرفة، ثم بوظيفة كغاسل أطباق على المجلى في أحد مطاعم الدرجة الثالثة..

عاد يستقل الحافلة في رحلتي ذهاب وإياب كل يوم، وحتى يوم الجمعة، فالعبادة باتت أقل، والعمل يستهلك من العمر أضعاف الأضعاف.. تحولت دور العبادة إلى ما شابه المواقع الأثرية التي يزورها السائح لالتقاط الصور التذكارية، ولا يؤمها سوى المتشرد للنوم، وكبير السن الذي يحن للماضي الجميل، والعاطل عن العمل للبكاء والترحم على الأزمنة الغابرة ليلا..

المندوب حر فيما يصنع حتى يرن هاتفه النقال، شتان ما بين تلك الأيام المريحة الهانئة، وهذه الأيام الحالية العصيبة التي يقضيها أمام المجلى من الثامنة وحتى الثامنة، ثمة استراحة تدخين لخمس دقائق خارجا



وأمام مكب القمامة، أما بالداخل فالوجبات كلها أمام المجلى، عدا وجبة العشاء التي بالإمكان تأخيرها حتى التاسعة أو العاشرة..

لم يكن (سياف) شخصا ودودًا للغاية، ولحسن حظه أن رفاقه بالعمل يجهلون ماضيه مع مهنة المندوب، فجميع من يمثل الطبقة المطحونة أو المشردة - وحتى الوسطى - يمقتون كائنا يدعى «المندوب»، فتعريفهم له أنه كائن ليلي شرير، مهمته مص دماء البروليتاريا وحتى الأسر التي أناخ عليها الدهر بنهم مروع..

أما عن تدخلاتهم غير القانونية التي أسميناها حيادا فقد صارت شيئا عزيزا من الماضي، اليوم صار المندوب وحشا محترفا يراقب بحياد بارد جريمة بشعة تقع أمام بصره، ولا يحرك ساكنا، بل يعكف على تدوين ما يراه على مفكرته الالكترونية إذا كان هذا ضمن نطاق وظيفته!

لقد ولى عهد المندوب يقظ الضمير، فانضمت مهنة أخرى إلى قافلة الضمائر الغافلة كعشرات الأطباء والموظفين ورجال الساسة الخاطئون الأزليون..

كانت الغرفة المستأجرة في حي قريب من المنطقة الصناعية، حيث هدير المكائن المزق سكون الليل، البعض اعتاد النوم على الضجيج المعدني، والبعض الآخر أصابه الأرق بسهولة تامة..

وكان (سياف) منهم..

رجل سهل التأقلم هو، سابقا في شقته الفاخرة كان يستلقى على فراش وثير وبصره شاخص للسقف حيث مستطيل الزخارف الشبيه بنقوش عواميد الإغريق الأثرية، يناظر بعينين عسير إغماضهما ثرياته الثلاث، التي بالمنتصف أكبرها طبعا، يرمقها لساعات دون أن يشعر،



يتمعن بمصابيحها البيضاوية متوقعا إضاءتها من تلقاء نفسها في أية لحظة كي تؤذي بصره..

فيما مضى لم يحاول استشارة طبيب خاص بخصوص أرقه، واليوم باتت مراجعة طبيب أسنان أمرا عزيز المنال، فالأطباء تحولوا إلى كواسر أخرى، حتى أن أسهما للاكتئاب خاصة بالمستشفيات دخلت سوق الأوراق المالية، ولا زالت مؤشراتها خضراء قائمة لفوق..

كان قد تجاوز مراحل الصدمة الأولية للخسارة الفادحة وفقدان كل شيء، فالغنى لم يكن مرافقا مخلصا له منذ الصغر، الذين بنوا أنفسهم ببطء وروية واثقة هم الأقدر على تحمل مصائب الحياة وصعابها، ربما لحسن حظه أن نشأ فقيرا لا يكاد يعثر على لقمة تسد رمقه، والأفضل أنه خبير لا يشق له غبار في الشارع، يعلم ماذا يعمل ومتى يتوقف عن عمله إذا ما شح مستوى مكسبه الضئيل، إصلاح الأجهزة الكهربائية المعطلة، الحنفيات، تكنيس أرضية محل للحلاقة من الشعر المقصوص، حتى وظيفة ماسح الأحذية صارت أكثر ازدهارا، فكل موظف يرغب بدخول وظيفته المحترمة بحذاء براق دون أن ينحدر مستواه – أو يحني ظهره – إلى حد تلميعه بنفسه..

لم يصدم (سياف) عندما وقف أمام المجلى أول مرة، كانت يداه خشنتين، بصيرته النفاذة وحدة ذكائه منحتاه فرصة العمل كمندوب مختلف، يعلم ماذا يصنع وأين ومتى يدخل.. العمل لصالح وزارة أسهل بكثير من استلام مصالح رجل أعمال أو عائلة ميسورة الحال، فالتدقيق عندئذ يبدأ من مراجعة دفاتر الحسابات، مرورًا بجوازات الأسرة وتجديد إقامات أفرادها الغرُب، وانتهاءً بالتكفل بأعياد الميلاد وحفلات الزفاف في الفنادق الفخمة، أو ترتيبات نقل جثمان فرد لدفنه في مقبرة لائقة..

كان (سياف) مندوب الشارع الأول والأخير، لا يعلن عن هويته الحقيقية أبدا إلا بدواعي العمل، أحيانا يستخدم المندوب صلاحياته لأغراض شخصية، والكل ممتثل وطائع للبعد عن المتاعب، فسلطة المندوب لم تكن يوما هينة..

لم يكن من ذلك الصنف الأناني المتبختر أبدا، كان يمتلك ضميرا أو بقايا ضمير..

إلى أن جاء اليوم الذي تلقى فيه زيارة من زميل قديم..





الفصل الثالث

بدا (عازم راضي) في أحسن حالاته لولا البلل الذي أصابه من جراء الأمطار الغزيرة بالخارج، بدلته ازدادت أناقة وغلاء، كذلك ربطة عنقه الزيتونية، نظاراته طبية مذهبة الإطار بعدما كانت بلاستيكية رخيصة..

جاء بلا حقيبة عمل زيادة بالود، لم يكن منفرا بطبيعة الحال، لكن (سياف) شعر في تلك اللحظة برغبة قوية في شتم وطرد سائر المندوبين..

استقبله بحفاوة! رحب به مسرعا إلى المطبخ وهو يكبت مشاعر متناقضة، كان يدس له السم في القهوة في مخيلته، يراقب السكاكين داخل الجرار المفتوح..

- «كيف حالك؟»

حالي؟ حالي يعلمها الله وتعلمونها أنتم، لا حاجة للسؤال فالمكتوب ظاهر من عنوانه كما يقولون!

عاد بصينية بمنتصفها فنجان قهوة ضئيل، فوجد زميله السابق يتأمل أركان الغرفة الحقيرة بحياد.. دائما بحياد! هذا عمل المحترف الحقيقي!

- «سألتك عن حالك..»

- «حالي؟»

لا ضير من المكابرة إذن..

- «لا بأس..»

- «لا تبدو بأحسن حال..»

وضع (سياف) الصينية على الأرض لأنه لم يجلب طاولة، وبهمهمة مبهمة نطق بادئ ذي بدء، ثم قال بوجل:

- تعودنا!

- أنا متعاطف معك، لكنك أضريت نفسك بنفسك والحق يقال..

- تهانينا..

هاهو ذا (عازم راضي) يبدأ! معزوفة التظاهر بالشفقة التي يجيد عزفها بمكر أريب! يرسم واجهة التعاطف التي يخفي وراءها شماتة عريضة..

بدأ يعلق على الغرفة والغبار، ثم ابتدأ الحديث عما كان يجب على (سياف) فعله، وعما لا يتوجب فعله، الناصح الصدوق، المتشفي الغدار!

- «لا تلم إلا نفسك، لو انك..»

- «لم ألم سوى نفسي.. صدقا! ماذا تبغي الآن؟»

- "يريدونك!"

قالها بأسف كأنما قصد بأن الشركة لا تتعلم!

لكن (سياف) انشغل بالاندهاش، فقال محاولا فهم ما يقال:

- يريدونني؟!

- مفاجأة.. أليس كذلك؟

- تقصد في قضية ما؟ شهادتي مثلا..

- بل يريدون عودتك كمندوب!



هذا لا يصدق! لابد وأنه مزاح ثقيل..

- «البند السابع: لا يحق..»

- «لا يحق إعادة مندوب لوظيفته في حال طرده مهما كان السبب.. لكن ثمة استثناءات لنقل.. خارج اللوائح!»

- "على قدر علمي سأصير بذلك الاستثناء الوحيد!"

قال (عازم) بسخرية مخرجا من جيب بدلته العلوي علبة سجائر غالية:

- مرحى لك إذن! ستلج التاريخ من ثغرة المفاجآت!

- كيف وقع هذا؟

- بكل بساطة..

وأشعل سيجارة مستمتعا بسيل المفاجآت التي يرميها واحدة تلو الأخرى تماما كالقنابل اليدوية، ينزع الفتيل ويرمي..

أخذ نفسا قبل قوله مطلقا العنان للدخان:

- عميل لدينا طلبك بالاسم..

- لم أدرك أن بإمكان العملاء طلبنا بالاسم..

- أنت محق، نحن الذين نرشح المندوب المناسب، وليس على العميل إلا القبول، لم يحدث أن رفض لأنه لا يعرف شيئا عن هذه العملية، ما يهمه إنهاء معاملاته عبر مندوب جيد وكفى..

- لكن هذا العميل جاء وطلبك أنت بالذات! لا أعلم كيف، فلا تسألني..

- هذا مستحيل تماما وأنت تعلم هذا جيدا..

- أعلم، هذا ما يثير حنقي! لكن الشركة متحمسة لهذا العميل بالذات..

- كم دفع؟

راقبه عبر خيوط دخانه، ثم ثبت السيجارة بين شفتيه مخرجا قلم حبر جاف ضغط زره العلوي، وعلى قطعة ممزقة من علبة سجائره سجَّل رقما أراه ل(سياف) بعدما فرغ من تسجيله..

صفر (سياف) أطول تصفيرة صنعها بحياته والدهشة تملأ كيانه حتى النخاع، وببسمة غير مصدقة قال:

- بإمكانه شراء الوزارة إذا ما أراد!

- السيد (سرور) قال ذات الشيء..

- وكيف حال المُعلم الكبير؟

- يبلغك سلامه وتحياته، ويسألك المجيء حالا وعلى وجه السرعة..

تفكر (سياف) هنيهة، ثم ردَّ مقررا تعذيبهم قليلا:

- سأفكر بالأمر!

تبسم ضيفه البغيض بتؤدة قائلا:

- كلانا يعلم أنك لن تفعل! لقد وقعت معجزة هاهنا، وأتحداك أن تركل فرصة جاءتك تطرق بابك بكل مودة!

كان ماكرا، لكن (سياف) زاد من تعنته بقوله:

- قلت: سأفكر بالأمر!

- لدي أوامر يا (سياف)، فكفَّ عن ألاعيب الصغار هذه، وانهض لارتداء ثياب لائقة..

حدَّجه (سياف) بنظرات متبلدة مفكرا.. كان يعلم أنه سيقبل، سيقبل دون أن يظهر سعادته لهذا الأفاق الوغد!



الفصل الرابع

رجل مكتنز صاحب بدل فاقعة الألوان على الدوام، ودبوس أزلي مذهب مغروز على حافة أية ربطة عنق مبهرجة يرتديها..

كان استقباله للمندوبين الجدد حافلا بالمقدمات البلاغية والمبالغة بإظهار عواطف غير موجودة، تماما كما يستقبل مقدم البرامج ضيوفه على شاشة التلفاز، ابتسامة، كلمات مشجعة، كان يتصرف تماما كمندوبيه أمام عملائهم!

السيد (سرور)، كهل يمارس رياضة الهرولة كل فجر رغم اكتنازه الأزلي، لم يحدث أن مرض أو أخذ إجازة، دائم التألق والابتسام حتى وهو يطرد موظفا مقصرا، يتمتع بسمت الرجل السياسي الذي يناضل لاحتلال المناصب القيادية، ثعلب سباق في التهام منافسه قبل بدء الأخير بوضع الخطط لتدميره!

رجل غير مدخن، تملأ نباتات الزينة الطبيعية شرفة مكتبه، يطلق رذاذ بخاخ معطر كل نصف ساعة في الجو، يزور جميع أقسام الشركة العالمية للمندوبين للتأكد من سير العمل، حتى غرفة الفراشين يزورها للتأكد



من جاهزية المشروبات المقدمة للموظفين والضيوف على حد السواء، والويل ثم للويل إن وجد الغرفة غير نظيفة أو البن غير كافٍ..

عمال تنظيف النوافذ يأتون يوميا بأمر منه، ممنوع دخول موظف بغير بدلة وربطة عنق، ممنوع ارتداء موظفة الحجاب، كان ممن يشجعون التنانير القصيرة والعطور الأنثوية الفواحة، ليس لشهوة في نفسه طبعا..

كان يبذل كل شيء في سبيل إرضاء عملائه..

ولكن، في ذلك اليوم، شعر أن عليه بذل المزيد من أجل عميل خاص..

لقد اختار ذلك العميل انتظار مندوبه الذي قدم اسمه ولم يرض عنه بديلا، تمنى تفاصيل أكثر بخصوص كيفية علم عميله الجديد باسم واحد من مندوبيه رغم سرية تلك الأسماء، والأدهى أنه مندوب سابق، والسياسة هنا تقتضي عدم إرجاع مندوب مفصول إلى عمله، لكن ذلك العميل الغامض نطق الكلمة الفصل عندما قدم شيكا دوَّن عليه رقما أرغمه على الضحك ذهولا..

كان يعاني صدمة، وعميله يصنع من أصابع يديه شبكة حرر منها سبابته فحسب، حيث أرجحها مراقبا بابتسامة تعابيره الذاهلة..

غضَّ السيد (سرور) الشيك عن بصره متملقا ضيفه بابتسامة مماثلة، هذا مبلغ تركع له سائر القوانين والأنظمة!

ثم اتصل ب(عازم)، وأمره بإحضار مندوبهم السابق في التو واللحظة، وعرض على ضيفه الهام القدوم لاحقا كي لا يؤخره عن أعماله..

- «سأتصل بك حال حضور مندوبك يا سيدي..»

- «لا عليك.. سأنتظره..»



- "ولكن أخشى تأخره، فكما تعلم - كما أخبرتك - هذه سابقة في تاريخ الشركة، ولربما تطلب الموضوع وقتا لكي.."

- "لن يتأخر، في الواقع أنه قد صار على مشارف مدخل البناية!"

قهقه السيد (سرور) لهذا المزاح الطريف، وبحماسة صاح مناشدا:

- لكنك ترفض شرب شيء!

- أفضل الاستمرار على ذلك، إذا شربت أي مشروب - مهما كان - شعرت ببعض الحموضة..

- شفاك الله وعافاك!

ابتسم الضيف ابتسامة غامضة..

سبابته لا زالت تتأرجح، فاتسعت بسمة السيد (سرور) شاعرا بإحراج غير مبرر، فسوى من ربطة العنق التي باتت تخنقه الآن، وبصوت خرج شبه مختنق بالفعل تمتم:

- أؤكد لك يا سيدي أنك لن تندم إذا ما تنازلت وسمحت لي باختيار المندوب الأنسب!

- لا عليك، فقد تكفلت أنا بهذه المهمة..

- لكن..

- سيد (سرور) أنا رجل عملي، من النوع غير المثرثر ويحب انتقاء الكلمات المناسبة لغرضه، أكره تكرار كلماتي، وأكره أن يرد لي أمر!

- معاذ الله أن..

- وأكثر ما أكرهه تملقك لي!

الضيف هادئ باسم بدعة، لكن السيد (سرور) شعر أنه ليس كذلك، شيء ما انفجر للتو كقنبلة لكنها ذات انفجار مكتوم!

لم يفته كذلك أن ضيفه المهم قد استخدم كلمة "أمر" بدلا من "طلب"..

كاد أن يعلق على ما قاله الضيف، واستعدادا لهذا ابتسم بسمة عريضة كمن يتقبل مزحة، لكن صوتا أنثويا تصاعد من جهاز الاستدعاء الخاص به:

- وصل السيدان (عازم) و(سياف)..

- دعيهما يدخلان حالا..

وبوجه يطفح بالبشر تمتم:

- وصلا أخيرا! كنت على حق يا سيدي!

- أنا دائما على حق!

طرقات تكاد لا تسمع على الباب، لكن السيد (سرور) سمعها..

- «ادخل..»





الفصل الخامس

لكم تغيرت الشركة!

حتى الشعار «اللوجو» صار أكثر جاذبية وفخامة، وقد وضعوا نماذج مذهبة منه في عدة أركان ورسومات على أبواب المصاعد..

الديكورات باتت أرقى، والأجهزة والمعدات أكثر غلاء وتطورا، لم يعهد وجود نافورة سابقا تتراشق ثقوبها المياه كالأقواس في اللوبي..

سكرتيرة المدير تحولت من فتاة مغرية إلى فتاة أكثر إغراءً، إلا أنها لم تقنع بما منحها الله من مزايا أنوثة، فعمدت للمبالغة بعملية سيليكون لم تظهرها بالشكل اللائق، وحتى الشفاه لم تسلم من عمليات التجميل إياها، فبدت لدى تبسمها أشبه بمهرج سيرك!

بشفتين منتفختين كأنما تعرضتا إلى لسعات الدبابير طلبت منهما السكرتيرة الانتظار..

لم يجلسا، ظلا واقفين و(عازم) يهمس ل(سياف):

- كيف وجدت المكان؟

- لطيف حقا، أنتم حققتم انجازا لا بأس به هنا!



- المكاتب صارت حلما، صبرا حتى ترى الحواسيب الجديدة التي زودنا مجلس الإدارة بها!

- لا شكرا، أفضل معرفة ما يتوجب عليَّ فعله بالضبط..

- "تفضلا.."

شكرها (عازم) بإيماءة من رأسه، وسار ووراءه (سياف) الذي تساءل باسما:

- ما لها ترمقني بهذا الشكل؟

- حاولت إقناعك بابتياع بدلة وربطة عنق على حسابي، لكنك رفضت!

- من يدري؟ لربما لم أنل النصيب، ثم أجد نفسي مدينا لك بثمن بدلة وربطة عنق!

- قلنا هدية يا أخي!

- شكرا على كل حال..

طرق الرجل طرقات خفيفة، ثم دخل يتبعه (سياف) الذي توجس خيفة بعض الشيء من لقاء الرجل الذي طرده سابقا..

كان مكتب المدير عبارة عن قاعة مزدانة بمثلثات ملونة على الجدران، تخللتها مكعبات ومتوازيات أضلاع، على النوافذ ستائر عنابية ذات زخارف مذهبة على أشكال طيور اللقلق، وقد وضعت لوحات تعج بالمعاني السريالية المبهمة، تلفازه كشاشة سينما مصغرة، ومكتبه بيضاوي إلا من مثلث ناقص يجلس خلفه السيد (سرور)، الذي وقف مع ضيفه لاستقبالهما بوجه بشوش أيما بشاشة..



"الانتيك" الوحيد في كل هذه الحداثة المبهرجة كان ساعة عتيقة بعرض خزانة رفيعة وطول لاعب كرة سلة، آتية من أواخر القرن التاسع عشر، يبدو وأنهم ابتاعوها من مزاد بمبلغ محترم..

(عازم) يدنو محاولا مصافحة العميل الهام، والعميل الهام يتجاهل اليد الممدودة، مراقبا وعلى ثغره ابتسامة سرابية كل إيماءة يقوم بها (سياف)، الذي راقب أركان المكتب الذي كان من المتوجب أن يكون قاعة اجتماعات أعضاء مجلس الإدارة..

(عازم) يرمق شذرا رئيسه الذي حرك بيديه حركات لا معنى لها كمن أسقط بيده، أم تراه يقول: «جاره.. جاره»؟

أخيرا كفَّ (سياف) عن التحديق، وحدَّق مطولا في وجه العميل الأسطورة الذي تبرع بمبلغ بإمكانه شراء حاملة طائرات أمريكية..

- «سيد (سياف).. إنه لشرف عظيم!»

لم يعلم (سياف) أن لقاء مندوب سابق طرد من وظيفته لبعده عن الحياد شرفٌ عظيم، لكنه ابتسم ابتسامة مجاملة مراقبا بدلة الرجل ذات اللون البنفسجي الغامق، وربطة عنقه السوداء..

كان وسيما لا شك في ذلك، صحيح أنه حليق الوجه إلا من ذقن مهذبة بدقة راسمة شوكة ثلاثية، لكنها لم تبد منفرة على وجهه، بل بدت وكأنها تزينه..

كان يرسل شعره بعض الشيء، أنفه دقيق وتقاسيمه قدت من فولاذ أو صخر، بشرته شاحبة قليلا، حاجبه كث، عيناه زرقاوتان وجبينه مجعد إلى حدٍ ما..



أمـا الأهـم من هذا كلـه القرط الذي تدلى من شـحمة أذنـه اليسرى، وكان عبارة عن سلسـلة فضية ضئيلة تعلقت بها لؤلؤة سوداء دقيقة تبدو باهظة الثمن!

وعندما مدَّ يده للمصافحة وجدها (سـياف) عجيبة اللون والملمس، كـما لـو أنها مغطـاة بقفاز أرجـواني دقيق، كغشـاء مطاطـي يرتديه رجال المعمـل الجنائـي أو أطباء التشريـح، وفي البنصر برقت قطعة سـوداء من الزمرد الخالص على شكل خاتم..

اقتضت تلك المطالعة حوالي خمس ثوان من (سـياف)، قبل تلقفه اليد ومصافحته العميل الذي قدم نفسه باسم:

- «(جاد الجرجوف)، رجل أعمال..»

- «(سياف سرخس)، مندوب سابق..»

- "تشرفنا!"

في تلـك اللحظـة دقت السـاعة معلنة عن حلول الثانيـة عشرة ظهرا، كان الرنين رخيما عتيقا، شعور بالرهبة اعترى نفس (سياف) وهو ينصت إلى إيقـاع القدمـاء الذين اندثروا، لكن بصره تعلق بمقلتي السـيد (جاد) الثابتتين..

عـرض السـيد (سرور) الجلـوس عـلى الجميـع، لكن الضيـف الهام انشغل عنه بمطالعة هامة (سياف)، كما لو كان يقيسها استعدادا لتفصيل ملابس له!

أما (سياف) فقد حاول - وبلباقة- استعادة يده، لكن العميل تشبث بها بقوة غير طبيعية، فغمغم بأقصى درجات اللطف المتصنع:

- يدي!



- معذرة!

هكذا حررها الرجل، فقاوم (سياف) شعور الألم الذي اعترى عروق وعظام يده، في حين قال السيد (سرور) دون مصافحات وبمرحه المعهود:

- كيف حال مندوبنا المفضل؟

أخيرا تنبه لوجود رئيسه السابق، فردَّ بتؤدة:

- بخير، وجدت وظيفة لا بأس بها أمام مغسلة أطباق!

- آآاهااا! أنت مثابر يا بني! مرحى لك!

- الشكر لك أنت على منحي تلك الفرصة النادرة!

واصل السيد (سرور) قهقهته لكن بنوع من الجفاء هذه المرة، ثم رمق (عازم) بنظرات ذات جفاء حقيقي طالبا منه الرحيل! فنهض الأخير منفذا الأمر على مضض..

جلسوا بصمتٍ مؤقت، ثم تكلم السيد (سرور) فقال:

- السيد (جاد) طلبك بالاسم..

- مرحى!

- يقول أنك أفضل من يمثل أعماله كمندوب!

- لم أعلم أن شركتكم مكتبة عامة يسهل مراجعة تقارير مندوبيها..

تدخل السيد (جاد) قائلا ببسمة غامضة ستظل على ثغره طيلة هذا اللقاء ولن تتغير البتة:

- أنا أعلم كل شيء..

- مثل الله؟

ضحك السيد (سرور) لهذه الدعابة، أما السيد (جاد) فتساءل:



- هل أنت مُجدِّف يا سيد (سياف)؟
- أنا؟ معاذ الله!
- يلوح لي أنك تتهكم!

عبس وجه (سياف) قبل قوله ضاغطا حروف كلماته:

- ألا تظن أنك من يفعل حين تستخدم عبارة جامعة مانعة ليست من خصال البشر؟
- قصدت: في حدود المعقول!
- إذن فلك مقصد! لِمَ لم توضحه سابقا؟

تفصد عرق مفاجئ من جبين السيد (سرور)، فعجَّل بالقول خشية فقدان عميله الهام:

- كفانا مزاحا ولنتحدث في العمل قليلا..

لكن السيد (جاد) تجاهل حديثه، بل ووجوده كله.. صبَّ جلَّ اهتمامه على مندوبه المستقبلي الذي يجالسه حاليا كصديق قديم..

سأله مواصلا تشريح الموضوع الذي تناولاه بشيء من تفصيل:

- أرى أنك من النوع الذي يمقت أمثالي يا سيد (سياف)..
- أكره أولئك الذين يثقون بكل حرف يتفوهون به، أنتم أصحاب العروش الدنيوية وقدور المال المكتنز، تحسبون أنفسكم آلهة!
- آلهة؟ مرة واحدة؟ يا له من اتهام مجحف يا سيدي!

صار وجود السيد (سرور) كعدمه، لقد تحول إلى مشاهد لتلك المباراة الكلامية على أمل ألا تتحول إلى مشادة بينهما!

والسيد (جاد) يتساءل:

- (سرخس)! هذا اسم غير متداول بين المسلمين كثيرا أليس كذلك؟

- والدي مسيحي، وقد سماه جدي على اسمه، وعنى به نبتة السرخس التي تقطف في عيد القديس يوحنا..

- يقال أنها فعالة ضد عضات الأفاعي!

- إنها خرافة لا أكثر، لا أدري كيف يمكن لغصن مقطوع بالأسنان وإلقائه للوراء مرورا بما فوق رأسه دون الاستعانة باليدين أن يقيك شر عضات الأفاعي!

- إذن أنت مسيحي..

- لا، أنا مسلم ولله الحمد!

- أسلمت؟ كيف ولماذا؟ إذا ما تفضلت وشرحت لي؟

- لم أقتنع بعقيدة التثليث..

- وبعد؟

- هذا كل شيء!

- ماذا عن ذويك؟ ألم يقولوا شيئا؟

- أنا وحيد كحمل ضلَّ سبيله في وادي الذئاب!

- أتدعي البراءة يا سيد (سياف)؟

- لا بالطبع، أنا فقط أسخر من نفسي!

ثم أردف بدماثة مصطنعة:

- أنت كذلك تحمل اسما عجيبا، ألم يجد ذووك غير اسم (الجرجوف) كعائلة؟

تدخل السيد (سرور) بضحكة مرتبكة قائلا وهو يلوح بيده أمام وجهه:

- السيد (سياف) يهوى المزاح كثيرا!

تمَّ تجاهله كالمعتاد من قبل السيد (جاد) الذي أجاب:



- لكنه اسم عربي في الصميم.. هل تعرف معناه؟
- بالتأكيد.. إنه الغول في الأساطير اليمنية القديمة!
- أنت واسع الاطلاع يا سيدي، وأنا أحترم المطلع كثيرا..
- لم نصل إلى حد إحراق الكتب لحسن الحظ!
- أنت ممن يتشاءمون من المستقبل إذن!
- المستقبل مشؤوم دائما وأبدا، هذا ما تعلمته..
- ولماذا السوداوية؟ المستقبل قد يحمل في طياته نور المعرفة والتقدم إلى ما هو أفضل، ألا تظن هذا؟
- ما أظنه - بل ومتأكد منه - بأننا نهوي في قعر الجحيم!

خيل له أن بصر السيد (جاد) قد برق بطريقة عجيبة، تماما كالتماعة عيون الضباع أو الذئاب ليلا!

وبنفس ابتسامته الغامضة ونبرته الرخيمة، غمغم السيد (جاد):

- من يدري؟ لربما كنتَ على صواب فيما قلته!
- ماذا حلَّ بالتقدم ونور المعرفة؟
- سمِّه محاولة إشعار بالتفاؤل، لكنني بالواقع أوافقك الرأي تماما في كل ما ذكرته!
- عظيم، أنت الأول من نوعك إذن!
- بإمكانك المراهنة على ذلك أيضا!

ثم قال السيد (جاد) بثباته الشبيه بتماثيل متحف مدام (توسو):

- أنا رجل دقيق يا سيد (سياف)، أتقن العمل وبمهارة فذة، وأحب من يماثلني في الإتقان لحد الإبداع، لذا اخترتك كي تصير مندوبي الخاص..

كانت تلك النقطة هي ما تثير خشية (سياف) بالضبط، لذا ردَّ قائلا:



- لقد عملت لصالح الداخلية ووزارة العمل ووزارة الصحة، لكني لم أعمل يوما لصالح فرد، وبصراحة أخشى أن..

- لستُ مجرد فرد يا سيدي، صحيح أن لي التزامات كثيرة تستوجب عشرة مندوبين على الأقل، ولكن خذها مني كلمة شرف ألا أثقل كاهلك، ولربما وجدت العمل لحسابي ممتع أيضا!

- هذا يتوقف على نوع المعاملات، ثم هنالك الحوافز والإمكانيات المتاحة في أعمالك و..

- ستجد كل شيء طوع أمرك، ستصير الرجل الثاني في كل شركاتي، كل طلباتك أوامر، أما عن الحوافز..

توقف هنيهة كمن يستعد لمفاجأة شخص بأسعد خبر، ومن ثم أردف:

- سيارة تحت أمرك، بسائق أو بدونه كما تشاء، طبعا ستكون ملكية خاصة بك، اعتبرها علاوة بدء العمل، أما الراتب..

- أنا أتلقى راتبي من الشركة..

- إلى جانبه راتب مجز تقبضه نقدا دون شيكات، أما السكن فسيكون في نزل "الحوت الأزرق"!

- "الحوت الأزرق"؟!

ببسمة مندهشة نطقها (سياف)، ثم استرسل كمن سمع مزحة:

- هذا النزل الذي تتحدث عنه عبارة عن فندق ثماني نجوم!

- أعلم، لذا ابتعت لك جناحا، هل تسرعت في صنيعي؟

- تسرعت؟ وكأنه حلم جميل! أكاد لا أصدق!

- سعيدٌ لسعادتك، وباختصار ستصير أكثر سعادة، ما عليك إلا أن توافق، وتأكد أن العمل سيكون متناسبا مع مهاراتك..

تدخل السيد (سرور) مخاطبا (سياف) بلهجة إغراء:

- طاقة القدر انفتحت أمامك كبوابة على مصراعيها، لا تتردد يا فتى!

- أنا موافق..

تنهد السيد (سرور) كمن أزاح عبئا ثقيلا عن عاتقه، في حين حافظ السيد (جاد) على ثباته وذات ابتسامته قائلا:

- عظيم.. متى بإمكانك البدء؟

- الآن لو أردت..

ران صمت مطبق لبرهة استغلها السيد (سرور)، فضغط زر إيصاله بسكرتيرته صوتيا:

- (يارا)، اطلبي لنا ثلاثة فناجين قهوة.. كيف تحبون قهوتكم يا سادة؟





الفصل السادس

لم يكن الوداع حارا بين (سياف) و(كيرياح) اليهودي صاحب الغرفة المؤجرة.. فقط تسليم آخر أجرة قد يدفعها في حياته، ثم..

- «شكرا على كرمك الحاتمي (كيرياح)! لن أنسى الحاحاتك وانتظاراتك المثابرة لي ككلب حراسة على المدخل!»

ضحك اليهودي الأصلع بتخابث قائلا بلغة الخواجات:

- على «الرخب» والسعة! والغرفة «ترخب» برجوعك متى شئت خبيبي!

- الله الغني!

ثم ودَّعه وهو يلعنه في سره..

كان يحمل حقيبة كتف هي كل ممتلكاته، ثياب، غيارات داخلية، مجلد فحواه عن القوانين القديمة والجديدة الخاصة بالمندوبين، وكتابا عن مذكرات "فيدوك" التحري الفرنسي الشهير..

ابتاع علبة سجائر مستوردة، فقد حان وقت استعادة الترف القديم.. تنفس عبر سيجارته عميقا، ثم همس متأملا مدخل البناية القذر:

- وداعا وإلى غير رجعة يا أيام الشقاء الضالة! أنا مرتحل إلى النعيم على مركب الأحلام وبتذكرة من الدرجة الأولى!

كان عليه ابتياع ملابس جديدة بادئ ذي بدء، المبلغ الذي تسلمه من السيد (جاد) كفيل بجعله يبتاع سيارة جديدة..

هكذا استقل حافلة أخذته إلى أرقى وأكبر محل للثياب الذكورية، فكر بتفصيل ملابس ملائمة، لكنه عدل عن هذه الفكرة مؤقتا..

كان ظهوره بثيابه البالية مناقضا للموديلات المعروضة وباعة المتجر، الجميع يرتدي الأفضل كما لو كانوا في حفل ساهر أو عشاء عمل، لكنهم رحبوا به ولم يطردوه لحسن الحظ..

ابتاع خمس بدل ودرزينة ربطات عنق، ثم عرج على كبرى محلات الأحذية حيث ابتاع أزواجا براقة متباينة ما بين الأسود، والبني المائل للخمري، والزيتوني المصنوع من جلد التماسيح باهظ الثمن..

بعدها عرج على محل العطور، المندوب واجهة، بمظهره ورائحته طبعا.. ابتاع ماركات عالمية، ومن ذات المحل أخذ أطقم أزرار فضية نقش عليها الحرف الأول من اسمه باللاتينية لأكمام البدل..

كانت ساعته الرقمية قديمة العهد، «كاسيو» مقلدة اشتراها أيام المراهقة، ولم يكن مستعدا للتخلي عنها، فقد أسعفته في عمله، حيث احتفظ داخلها بمفكرة أسماء وأرقام من تعامل معهم في كافة الوزارات..

وبعد أن فرغ من الشراء، وخرج من السوق محملا بالأكياس البلاستيكية اللامعة، رفع يدا مشغولة بعدد من الأكياس كي يوقف سيارة أجرة..

سأله السائق الذي أقله وهو يضغط أزرار العداد الالكتروني:

- إلى أين يا معلم؟

أجاب كالحالم:

- «الحوت الأزرق»!

- مرة واحدة؟ لابد وأنك تعمل هناك.. كم يدفعون رواتب؟ ألا يحتاجون إلى سائق؟ محسوبك يقود هذه الخردة منذ..

كان يسأل أسئلة دون انتظار سماع إجابات، وخلال الرحلة كان (سياف) قد عرف ماضي السائق واسمه الثلاثي ومعاناته مع قوانين المرور ولقمة العيش..

- «لعنة الله على المندوبين! لم يتركوا شيئا إلا ودققوا فيه بحجة احترام قانون الغاب خاصتهم! الأوباش أولاد ال.. دفعونا ما فوقنا وما تحتنا باسم القانون! أؤكد لك ألا قانون سوى قانون قطاع الطرق الذين يتظاهرون بالالتزام! ثم يقع الدفع على عواتق البؤساء أمثالنا؟ مندوب المرور أخذ عمولة مني السنة الفائتة كي لا يضع رقم رخصتي ضمن قائمته السوداء، أقول له: يا سيدي هاك العداد! مستعد لفكه أمامك كي تتأكد أن هذا كل ما نكسبه.. لكن من بحق الله ينصت؟ ألا لعنة الله عليهم أجمعين وعلى شركتهم الظالمة.. قال شركة «مندوبك» قال!»

أرجح (سياف) برأس موافقة، ثم قال متأملا الشارع والمارة عبر النافذة:

- الأوغاد يستحقون قطع رؤوسهم!

- بل أن يصيروا وقود جهنم! تصور يا معلم! أنا مدين للمرور بمبلغ وقدره الشيء الفلاني، مبلغ محترم يصلح لحل مشاكل الفواتير المستعصية، وعندك الولد بلا تأمين صحي، أي والله! والبنت ثانوية عامة السنة، وهي شاطرة عقبال أولادك.. فمن أين لي بأقساط الجامعة لاحقا؟



- الأحرى بك أن تزوجها ولا حول ولا قوة..

- وأضيِّع عليها مستقبلها؟ لا ورحمة أهلك! أعمل ليل نهار كالحمير، والحرمة في المنزل تقشر البصل للمطاعم، فمحسوبك يعمل بعد دوام التاكسي في مطعم حمص وفول وفلافل!

- كان الله في عونك..

- لا حول ولا قوة إلا بالله، حتى العبادة صار يلزمها مندوب!

استغرق (سياف) في تلك الخواطر حتى نسي أين هو ذاهب..

كان الرجل يثرثر، يثرثر كالجوال المشحون، و(سياف) يحاول إقناع نفسه أنهم يماثلون بعضهم في كثرة الشكاوي والتذمرات..

ثم يتذكر كيف طرد من شركته ومعاناته أمام مجلى الصحون، ويتذكر قبل ذلك التلاعبات التي تحدث في الأوراق والكشوفات، وكيف استغل زملاءه وظائفهم في تحقيق مكاسب شخصية، حقا إن «مندوبك» شركة شيطانية، تحقق مدخولات بمئات الملايين سنويا، والذي يعاني من أمثال هذا السائق الشقي في دنياه..

- «الحوت الأزرق يا معلم»!

تأمل (سياف) المدخل الشبيه بمدخل السجادة الحمراء لحفل توزيع جوائز الأوسكار، حيث حجَّاب الفندق بطواقيهم وبزاتهم الرسمية، كما لو كانوا ضباط «مارينز» لكن ببزات عنابية..

قرأ (سياف) العداد، ثم دسَّ مبلغا من المال في راحة يد السائق..

- «هاك، وبلغ تمنياتي بالتوفيق لابنتك..»

لكن السائق لم يرد، ظلَّ ساهما كالمصدوم، مفكرا أن الله استجاب له أخيرا بعد كل تلك الدعوات التي أمطرها صبحا ومساء طلبا لرحمته!



ترجل (سياف) من سيارة الأجرة بحمولته مطالعا سيارات «الليمو» الجديدة والبراقة متباينة الألوان، كل سيارة تتوقف أمام المدخل ليهرع أحد حجّاب «المارينز» برشاقة ويفتح لأصحابها الباب باحترام وهو يمس طرف طاقيته المضحكة..

أبصر (سياف) شبابا يضعون أياديهم على خواصر مراهقات بفساتين فاضحة، فأدرك أنهن لسن بناتهم أو حفيداتهم!

لمح عددا من نجوم التلفاز والسينما، وهذا ليس غريبا على فندق «الحوت الأزرق»، لكنه انبهر بالطبع لمرآهم على الطبيعة، وشعر بغبطة لا حدود لها لما تذكر أنه يمتلك جناحا هنا..

حاجب «مارينز» يحدجه بنظرات شذرة دون تزحزحه من مكانه، (سياف) لاحظ تلكم النظرات المزعجة فلم يبال، تقدم حاملا أغراضه وهو شبه متأكد من أن الرجل حتما سيستوقفه..

بالفعل نفذ الحاجب السيناريو حرفيا، فاعترض سبيل (سياف) قائلا بصرامة مهذبة:

- إلى أين يا سيد؟

- لدي حجز هنا، بالأحرى أمتلك جناحا عندكم!

ابتسم الحاجب بسمة "في الأحلام!" إياها، فوضع (سياف) أغراضه أرضا، واستخرج من حافظته بطاقته البرونزية ذات الطرف الفضي التي استعادها من رئيسه في الشركة، مجددة وجاهزة!

هنا فقط انقلب الرجل بسرعة البرق إلى التهذيب الشديد، فخطف الأغراض متمتما بلهجة كالاعتذار.. بل هي الاعتذار بعينه:

- آسف سيدي، سأحمل عنك متاعك لو أذنت لي سيدي!



- كما تشاء!

قالها بنوع من الاستعلاء لأنه رأى أن الحاجب يستحق ما هو أكثر..

في الداخل، كان رجل قصير ممتلئ ببدلة رمادية وفراشة "بابيون" تزين ياقته يهرع نحوه، استقبله بحفاوة حارة قائلا:

- سيد (سياف)، السيد (جاد) أخطرنا أن نتوقع وصولك في أية لحظة، أهلا وسهلا بك!

- أهلا.. هل الجناح جاهز؟

- الطابق الثاني عشر، هاك بطاقة قفل الباب، رقم الجناح مطبوع عليه، وإذا احتجت أي شيء فنحن في خدمتك، أرجوك لا تتردد..

شكره (سياف) ملقيا بنظرة عابرة على أرقام بطاقته، شعر بقوة لا حدود لها وبخاصة في ثيابه غير المعتنى بنظافتها وكوائها، الجميع يرمقه بامتعاض واستنكار، كانت قراءة ما يجول في خواطرهم هينة، إنهم يتمنون خروجه، لا بل يتمنون طرده بكل مهانة واستحقار، لكنه يخيب آمالهم بكل هذا الاحترام الذي يلقاه هاهنا!

متاعه سبقه إلى جناحه، ففكر بالبقاء والاستمتاع قليلا بإغاظة أصحاب الطبقة المرفهة أولئك..

سار إلى البار، فوجده مكتظا برجال أعمال عرب وقد ضمَّ كل واحد منهم حسناء أجنبية أو أجلسها في حجره، الكؤوس تتقارع والأنخاب تقترح.. "في صحتك"، "في صحة الصفقة"، في صحة الجمال".. الخ

لكن أكثر ما لفت أسماعه ذلك النخب الذي اقترحه شخص فقد توازنه من الإفراط فيما يشرب، إذ وقف كالمتأرجح صائحا وكأسه يرتفع عاليا كشعلة الحرية:



- في صحة ولي نعمة الكل (جاد الجرجوف)!

فرفع الجميع كؤوسهم بلا استثناءات!

تفكر (سياف) قليلا.. إن (جاد) هذا لأخطبوط حقيقي مادام كل هؤلاء يدينون له بالنعمة!

طلب مشروبا غازيا وهو يثبت سيجارة بين شفتيه، أشعلها بعود ثقاب متأملا الرواد من حوله، قبل تنبهه إلى فتاة سافرة الساقين تضعهما فوق بعض، بإشارة واضحة ترفع سيجارتها باسمة بانتظار..

ابتسم مشعلا عودا جديدا قربه من طرف سيجارتها ذات المبسم الرصاصي، فأشعلتها ثم هزت برأسها شاكرة، ثمة سواد تدخين شرس فاضح على شفتيها، ورغم طلاء الشفاه القرمزي الغامق لم تنجح بمداراته عن الأعين..

قالت له بميوعة:

- لم أر أحدا يشعل ثقابا منذ زمن!

- أفضله على القداحات، لا أعلم ولكنني أجد له مذاقا عتيقا يصعب نسيانه!

- من الجميل أن نتذكر الماضي أحيانا، أنا على سبيل المثال كنت أتناول سلطة الفواكه كتحلية عقب سلطة التونة والربيان، لكن طعامي اقتصر الآن على سلطة الفواكه وحدها!

تبلدت ملامحه وقد عجز عن التفكير في أي منطق مما قالته، ولم يمنع نفسه من التساؤل:

- ما علاقة هذا بالماضي؟



لوّحت بيدها ذات السيجارة كأنما تهش الذباب عن وجهها قائلة بعصبية:

- الماضي! ألسنا نتحدث عنه؟ حتى الكعب صرنا نرتديه بموديلات أرفع! وكأن الكعب العريض ليس أنيقا بما فيه الكفاية، لقد انقرضت الكعوب العريضة من الأسواق، ألا تراها جريمة؟

«أرى الجريمة الوحيدة هنا هي الإصغاء لمخبولة مثلك!» تمنى لو قالها لكنه اكتفى بإيماءة مهمومة من رأسه..

والفتاة انطلقت تثرثر أعقم ثرثرة سمعها في حياته، تحدثت عن سيارتها الجديدة، وعن خطيبها السابق الذي تركها بمجرد أن ذكرت له رغبتها في نفخ شفتيها أكثر! كل هذا وهو يفكر في طلب مشروب قوي من الساقي كي ينسى ما تفوهت به من ترهات، لكنه اكتفى بمياه غازية..

وصل مشروبه مع ربع ليمونة خضراء وقشة ملونة، فأزالهما وتجرع شرابه على جرعات حذرة، لا هي بالقليلة ولا بالكثيرة، كي لا تتنبه إلى أنه ينوي الإسراع بشرب ما طلبه كي يلوذ بالفرار..

والفتاة تثرثر كالمذياع السقيم..

أخيرا فرغ من شرابه، فدسّ وريقة مالية أسفل الكأس، وحيا الفتاة مقررا الصعود لجناحه..

لكنها لم تتركه، بل تشبثت به قائلة بدلال:

- ألن تريني غرفتك؟

- عن أية غرفة تتحدثين؟ أنا هنا لزيارة صديق فحسب..

- آه! أرجو المعذرة..



هكـذا تحولـت عنـه باحثـة بعينـين أريبتـين عـن ذبابة أخرى يسـهل اقتناصها، فخفَّ (سياف) للمصعد وشعور عارم بالضحك يغمره، لكنه وببسالة كبته!

حيَّاه عامل المصعد باحترام رغم ثيابه..

- «أي طابق سيدي؟»

- «الطابق حيث يحوي رقم هذا الجناح!»

الفتاة اللعينة أنسته الطابق، فألقى العامل بنظرة سريعة على الرقم قبل قوله بتهذيب شديد:

- الطابق الثاني عشر..

وهكـذا احتملهـا المصعـد للطابق المنشـود، كان ذا واجهـة زجاجية تسمح برؤية «اللوبي» كاملا، فوجده (سياف) من فوق عالما ما بعده عالم، يعج بالأثرياء المجانين الذين يرتدون كل ما هو غال ونفيس، ولا ينطقون سوى بالترهات الداعية للتثاؤب..

كان يمقتهم..

- «وصلنا سيدي..»

منحه (سـياف) بقشيشـا على لطفه، فدسَّه الرجل في جيبه قائلا بذات التهذيب وهو يمس طرف قبعة «المارينز» خاصته:

- في خدمتك سيدي..

غادر (سياف) المصعد سائرا في ممر ذكره بممرات المستشفيات، الفرق أنـه مبهج أكثر ويفوح بعطر أزهار البرتقال، "الموكيت" الذي سـار عليه إيراني أزرق مطرز بخيوط خضراء اتخذت أشكالا مبهمة..



كان يمر كل ربع دقيقة بمنضدة موضوع عليها مزهرية صينية حوَت أزهارا طبيعية، ومن بعيد رأى خادمة غرف حسناء هيفاء تعكف على بخ الماء بعناية على الأوراق، كما لمح أخرى تفوقها حسنا وتناسقا بالقوام تجر عربة عليها بقايا طعام عشاء..

حياهما بهزة من رأسه، فبادلنه التحية ببسمات عذبة..

أخيرا بلغ باب غرفته، فاستعمل بطاقة الفندق للولوج.. فما إن صنع حتى انطلق صفير حاد عبر ثغره متأملا الجنة التي ولجها بقدميه..

السرير وحده كان بعرض غرفته القديمة! من طراز فكتوري عتيق، لابد وأن "لويسًا" ترتيبه الأول أو الثاني عشر قد نام عليه!

خزانة ثيابه من النوع الالكتروني، بجهاز تحكم عن بعد يمكنه فتح أبوابها وإغلاقها، ومن السقف هبطت ثرية أخذت تصميمها من رواسب الجليد المتدلية من أسقف كهوف القطب المتجمد..

ألقى بنظرة عابرة على الحمام فاعترته غبطة، الحوض يصلح للسباحة! و"الدش" مصممٌ بحيث تهبط مياهه كزخ المطر من السقف بأكمله!

سار حتى النافذة التي استحوذت الجدار الأمامي كاملا، فأبصر أضواء المدينة الليلية، بمحلاتها ومركباتها، لقد تحول إلى أمير ما بين عشية وضحاها!

رمى ببدن منهك بعض الشيء فوق السرير، غاص داخله قليلا، فارتسمت أكثر بسماته راحة على شفتيه، وبعينين مغمضتين بدأ يفكر أن المستقبل قد توقف أخيرا عن المضي بهرولة، منتظرا إياه بأريحية كي يلحق بركبه السعيد!



الفصل السابع

قال السيد (بدر):

- أرجو أن تكون راضيا يا سيد (سياف)..

- أنا راضٍ كل الرضا، شكرا..

نطق بجملته تلك وعيناه معلقتان على بعض الأشكال البلورية على سطح مكتب الرجل، نماذج عدة مصغرة لتماثيل غريبة التصاميم..

لم يحتمل فضوله، فتساءل باسما وهو يشير بطرف سبابته إلى إحداها على استحياء:

- هل هذه عفاريت؟

توقف السيد (بدر) عن تقليب ملفاته، ونظر متأملا مجموعته..

- «بإمكانك قول ذلك..»

«تبدو شاذة قليلا هنا، ألا تظن؟»

أراح السيد (بدر) يدا فوق الملفات، وبالأخرى هرش خده متسائلا ببسمة:

- ألا تريحك الأعمال الفنية يا سيد (سياف)؟



- تريحني إذا ما كانت لوحات لجبال الألب أو حدائق الكرز في اليابان، لكن هذه..
- لا عليك، لست أول من يظهر اشمئزازه من ذوقي..
- ليس اشمئزازا وإنما..
- أعلم، لنقل أنها لا تشعرك بالراحة..
- بالضبط!

كما صاحبها ومكتبه العاج بأشياء مماثلة! تماثيل لقطط فرعونية وإله الشر "ست" وأحجار مرممة بكتابات هيروغليفية، دروع من العصور الوسطى، شعار لقلب قرمزي على الجدار ذكره بشعار طائفة معبد الشمس الانتحارية المخبولة، منحوتة خشبية متوسطة لإله المراعي "بان" وهو يعزف على قصبته بانتشاء رافعا قدمه الشبيهة بحافر الماعز في الهواء!

- «السيد (جاد) أوصانا بتلبية جميع رغباتك مهما كانت..»
- «هذا لطف منه ومنك..»

ارتدى الرجل نظاراته القبيحة قائلا بروتينية مفاجئة:

- إذن.. نباشر العمل؟
- لِمَ لا؟
- مُمتاز، بصفتي مدير مكتب (الجرجوف) للدراسات والبحوث والوثائق، سنبدأ بقضية تهم السيد (جاد) كثيرا، ولأنك المندوب فسيساعدنا هذا على حلها دون تدخلات أمنية من هيئة الآثار..
- تتحدث وكأننا بصدد تهريب بعضها!
- ليس إلى هذا الحد! لا بل على العكس تماما، نحن نحاول حمايتها من السرقة، نوثق هنا مخطوطات قديمة ونادرة لدرجة بيعها بملايين في مزادات الأثرياء الأجانب.. حاليا لدينا اهتمام بما يدعى «مخطوطة

(أغاته)»، (أغاته) هي قديسة مولودة في «بالرمو» المعروفة حاليا بصقلية، وتعود تلك المخطوطة إلى مملكة «بورغونيا»، التي كانت تستعين بقرع أجراس كاتدرائياتها عشية عيد القديسة (أغاته) في كل رابع من شهر شباط بغية طرد الشياطين..

- شياطين؟!

تغيرت روتينية السيد (بدر) إلى ابتسامة رائقة مردفا:

- في يوم قرع الأجراس كانوا يختارون امرأة عجوز قبيحة للجثم على حمار وشتم كل من تقابلهم، حتى دنو ميعاد دقات صلاة التبشير!

- هذا طريف! إن اهتماماتكم في هذا الوقت وهذا العصر غريبة بعض الشيء..

- إنه سحر التاريخ يا سيد (سياف)! عبقه المليء بالألغاز المثيرة..

- أراها تخاريف لا أكثر، حكايات ما قبل النوم!

- اسخر ما شئت من اهتماماتنا، لكنه عمل يتطلب مهاراتك..

- مهاراتي؟ بشأن مخطوطة (أجاثا) هذه؟!

- (أغاته)، وأجل! نريد منك القيام بزيارة ودية للسيد (سراج عدوان)..

- جامع التحف الأشهر؟

- هو بعينه، إنه يحوز مخطوطة يدعي أنها مجرد نسخة من مخطوطة القديسة (أغاته)، إذا كان ما يقول فبإمكانه الاحتفاظ بها، أما إذا اتضح أنه العكس، وبأن المخطوطة أصلية..

- مفهوم، تصير من حق المتحف الوطني.. كيف لي أن أعلم إذا ما كانت أصلية أم لا بحق جهنم؟



- أولا هـذه مهمة تقع على عاتقك كمندوب، ثانيا ذكر السـيد (جاد) مهارة خاصة تتمتع بها بشأن الأشخاص..

- أتعني أن أستعين بحدة بصيرتي في كشف صدق الرجل من كذبه؟

- لا أدري، السـيد (جاد) هو الذي وظفك، فلا تسـألني عما قصده، الأحرى بك أنت أن تعرف..

- يلوح لي أن السيد (جاد) يعلم عني أمورا أنا نفسي لا أعرفها!

- لا فكرة لدي عن هذا أيضا..

- ولماذا لا تشكل هيئة الآثار لجنة لتفحص المخطوطة؟

- السيد (سراج) شخصية هامة على الصعيدين الوطني والعالمي، كما أنه مقرب من شخصيات أهم في الدولة والخارج، ولا نريد..

- شوشرة! فهمت.. سأحاول الاستعانة بخبير على طريقتي الخاصة..

- افعل ما تراه مناسـبا، وبالنسـبة للخبير هاك هـذه البطاقة، أوصيك بمراجعة البروفيسور (خيرت) فهو الأكفأ في مجاله، المهم أن ترجع بتقرير شاف واف لكل ما يتعلق بالمخطوطة التي بحوزة السيد (سراج)..

- كما تشاء..

- لا يا سيدي، بل كما يشاء السيد (جاد) ويحب!

ونهض لإنهاء اللقاء، فنهض (سياف) بدوره لمصافحته..

غادر مكتـب الرجل منطلقـا بسـيارته BMW الأقحوانية الجديدة، كان يشعر بفخر كلما قادها، سيارة قد يقتل المرء للظفر بمثلها!

والآن حان وقت العمل الجاد..

بدايـة، عـرج على المكتبـة العامة، فبحث عن مراجع شـاملة عن تلك المخطوطـة المزعومـة، ما عثر عليه كان شـحيحا، لم يـزد بالأحرى على ما سرده السيد (بدر)..



كان يفضل الملفات السميكة المكتظة بورق مصفر على تلك الظاهرة بيسر على شاشة الحاسوب، لكنه مضطر للتنبيش في مواقع "الانترنت"، فالحق يقال أن جمع المعلومات عبرها أسرع وأحيانا أدق..

لم يجد تاريخا يستحق الذكر بشأن المخطوطة، سوى أن جامع التحف والمخطوطات الأشهر السيد (سراج عدوان) يحتفظ بنسخة عن المخطوطة الأصلية، ثمة معلومة ضئيلة عن الاعتقاد السائد بأن المخطوطة تطرد الشياطين وأيضا الصواعق التي تقذفها السماء!

- "جلا جلا!"

قالها بتهكم ملول، ثم جمع أوراقه مقررا القيام بزيارة إلى عنوان الخبير المدوَّن على بطاقة السيد (بدر)..

كان الخبير يقطن ضاحية راقية، مسكنه وسيارته في المرآب تدلان على أن مهنته مربحة.. الرجل نفسه متزوج من فتاة بارعة الجمال بعمر بناته، حامل في شهرها السابع أو الثامن كما يبدو..

استقبلته بحفاوة، هنئها على الحمل فاعترت وجهها بشاشة لطيفة، وأخذت تثرثر عن سعادتها بالمولود القادم ليملأ عليها فراغها المقبض، خاصة وأن زوجها مشغول عنها طيلة الوقت بمخطوطاته العتيقة..

- "ولد أم بنت؟"

أجابت بمرح:

- رفضت معرفة ذلك، صحيح أن انتظار المفاجأة يكاد يحرق أعصابي، لكن الأمر مستحق..

واقتادته إلى مكتب زوجها الذي استقبله بذات الحفاوة، ثم انقلبت حفاوته ترحيبا أشد حرارة وتحمسا لما أعلمه بأنه مندوب آتٍ من طرف



السيد (بدر)، كوّن (سياف) رأيه السابق عن مسألة الزواج برمتها ما إن وقع بصره على شعر (خيرت) الرمادي وتجاعيده الأخدودية التي منحته مظهرا أثريا هو الآخر..

جلسا، وهرعت الفتاة كطفلة رشيقة لإحضار ما يشربانه، استوقفها الرجل بحزم داعيا إياها لسؤال ضيفه عما يود شربه..

- "أووووه ليس ضروريا!"

قالت الفتاة بخجل:

- أنت ضيفنا!

حدَّجها الرجل بنظرات ذات برودة منفرة، وببرودة أشد تمتم:

- هاتِ لنا عصير الرمان المثلج يا (ميار)، فلابد وأنه سينعش السيد المندوب كثيرا..

شعر (سياف) بكراهية تجثم على صدره تجاه الرجل، فبادل برودته المنفرة ببرودة منافسة مجيبا:

- لا شكرا، الجو بارد أصلا وأنا منتعش.. على فكرة أنا لم أؤكد شخصيتي بعد..

وقبل إخراج بطاقته استوقفه الرجل بإشارة من يده قائلا:

- لا حاجة يا سيدي، قليلون من هم على معرفة بالسيد (بدر)، وأنا أثق أنك مندوبه..

- مندوب السيد (جاد) في الواقع..

ارتسم تعبير اهتمام فوري على ملامحه متسائلا:

- السيد (جاد) عينك مندوبا لديه؟ هذه سابقة! هل لي بشرف معرفة اسمك يا سيدي؟



- (سياف سرخس)، بدأت اليوم فقط العمل لصالحه..
- لابد وأنك ماهر بعملك كي يختارك السيد (جاد) شخصيا..
- يبدو وأنك معجب به..
- السيد (جاد) خبير بالمخطوطات القديمة، يكاد يصبح عالما بها..
- جميل، الواقع أنه أرسلني بشأن واحدة..

ومن حقيبة العمل استخرج الأوراق التي صوَّرها من المراجع وصفحات "الانترنت"، فاستخرج البروفيسور (خيرت) نظاراته الدقيقة من جيب قميصه العلوي..

قال وهو يعلقها على أنفه ومضيقا بحدقتيه كي يمعن النظر:

- لنر.. آه! مخطوطة (أغاته)، القديسة التي يقرعون لأجل عيدها أجراس طرد الشياطين..
- والصواعق كما ذكر في المراجع!

خلع نظاراته قائلا بتأييد:

- والصواعق، الحق يقال أنها مخطوطة مثيرة للاهتمام بالنسبة لنا كباحثين، القدماء اهتموا كثيرا بسبل طرد الشياطين، في مملكة "بورغونيا» حسبوا أن الصواعق ترسلها الشياطين لتدمير مدينتهم..

أنصت (سياف) باهتمام مصطنع، فقد تعلق ذهنه بقناع عجيب الشكل يضعه البروفيسور على الخزانة وراء ظهره..

كان القناع غريبا ومنفرا، بطول أقنعة الزولو تقريبا، وبقرنين قصيرين وفجوة عين واحدة، ومن الفم خرج قمع طويل كالمزمار!

بذات الفضول الذي يحركه دائما تساءل بتهذيب مشيرا بطرف السبابة إلى ما وراء ظهر الرجل:

- أرى لديك قطعا مثيرة للاهتمام يا بروفيسور..

اندهش الرجل، وعندما تلفت قليلا للوراء اغتصب قهقهة وهو يواجه (سياف) مرة أخرى، وبإبهامه أشار للوراء قائلا:

- هذه؟ أعترف أنها أكثر ما ينفر ضيوفي هنا.. يستنكرون من باحث مخطوطات مخضرم مثلي تعلقه بجمع أدوات التعذيب السائد استخدامها في العصور الوسطى!

- أدوات تعذيب؟!

- يسمونه "قناع بوق الشيطان"، كانوا يلبسونه عنوة للمتهم المقيد، وعبر القمع الطويل الشبيه ببوق كانوا يطعمونه أو يشربونه ما شاءوا!

- جميل!

لقد تورطت مع مجانين كما يبدو! كذا تفكر (سياف).. مخطوطة طرد شياطين، وقناع بوق شيطان.. لن يستغرب إذا ما اتضح له أنهم يعبدون الشيطان أيضا!

- "لدي مجموعة مثيرة للعجب في القبو، أترغب بمشاهدتها؟"

- "لا شكرا، دعنا نتطرق لصلب الموضوع أفضل.."

ظهرت (ميار) في تلك اللحظة حاملة صينية وضعت فوقها كأسا بلورية ملأى بشراب خمري اللون..

- "وصل شراب الرمان المنعش!"

تناول كأسه شاكرا، في حين غمغم البروفيسور باسما:

- كنت أحكي لضيفنا عن قبوي العجيب!

هتفت مستبشعة ويدها اليمنى تربت على بطنها المتكورة، في حين أسندت ظهرها باليسرى شأن كل الحوامل:

- (خيرت) يحب هذه الأشياء المخيفة! يهتم بجمعها رغم أشكالها المفزعة..

- ولا تنسي الأرواح التي زهقت عليها يا عزيزتي!

- بالله عليك لا تقل هذا!

أطلق ضحكة زادت من استحقار (سياف) له.. هذا زوج يحب إرعاب زوجته إذن، يا له من تصرف سخيف لا يليق برجل في مثل سنه ومكانته!





الفصل الثامن

لم يكن السيد (سراج عدوان) مجرد جامع مخطوطات عادي.. لقد أفنى الرجل عمره كمحاضر في جامعات أمريكا وبريطانيا متناولا الخرافات وعلاقتها بالواقع، ومستشهدا بعدد من المخطوطات النادرة وحتى الروايات الشهير منها والمغمور، وله مراجع ومؤلفات عن السحر الأسود وطقوس استحضار الأرواح الشريرة القديمة وطردها، والنباتات الأسطورية التي يستعمل لقاحها في درء أذى الأشباح..

وفي الأدب له كتاب ترجم لعدة لغات - عدا العربية - خصصه لشرح ونقد أشعار ديوان (بودلير) الفرنسي «أزهار الشر»، ورواية تسجيلية عن محاكمة وإدانة قاتل هنغاري زعم أن الشيطان أمره باغتصاب وذبح عدد هائل من القاصرات شريطة أن يكن حوامل!

قد كان ذوق الرجل غريبا إلى حدٍ منفر، لكنه ذوق مرحب به في المجتمعات والنوادي الغربية، وفي المحافل التي جمعت الساسة وعلية المجتمع من رجال أعمال وفنانين كان نجمه يسطع لخبرة زعم أنها تمكنه من مطالعة المستقبل بقراءة خطوط اليد..

لذا قرر (سياف) استخدام أسلوب التعارف الماكر، مقررا حضور حفل سيحضره السيد (سراج)، فاستعد بهندام مناسب.. صحيح أنه ليس على لائحة المدعوين، لكن بطاقة المندوب كفيلة بإدخاله معتقلا تقبع زنازينه تحت الأرض، ودون أن يناقشه أحد..

كان الحفل مقاما تحت رعاية مؤسسة لدعم المخطوطات الأثرية النادرة في فندق «رياح الاستواء»، سمي كذلك تيمنا برواية (همنغواي) الشهيرة طبعا..

بعد ارتباك موظف الأمن المختص بتفقد اللائحة وسماحه ل(سياف) بالدخول – مع وافر الاحترام طبعا–، تسكع الأخير قليلا هنا وهناك مختلسا النظر في وجوه المدعوين..

أبصر هدفه محاطا بنسوة مسنات خضعن لعددٍ مروع من الجراحات التجميلية، فمنحتهن مناظر تليق بمنحوتات من الشمع، بوجوه غارقة بمساحيق التجميل وفساتين آخر صرعات الموضة والعطور المدوخة، تضاحكن على النكات البارعة التي ألقاها بحنكة، وبشفاه مطلية بألوان متباينة ما بين الوردي والقرمزي الفاتح والغامق وحتى البنفسجي، تهامسن بتخابث وأعينهن متربصة بالرجل في كل شاردة وواردة يقولها..

فكر (سياف) – مستهزئا– بالخواء الفارغ الذي يعتشنه، بالمجتمع السخيف الذي يبحث بعدسة مكبرة عن كل التسالي الحمقاء الممكنة، بدت أجسادهن منحوتة لبنات في العشرين رُكبت لعجائز في الستين والسبعين..

والآن يناقشن قارئ البخت هذا في تسلية جديدة وممتعة..



كان الرجل مستمتعا بوقته، يطالع يد هذه وأنامل تلك دونما كلل، يتفوه بهراء يصدقنه بانبهار، ومن فورهن تنهال الأسئلة الملهوفة عليه فيجيب بكل تواضع..

بدا وكأنهن التصقن به للأبد، فقرر التدخل للخلاص من هذا الهراء على الفور..

- «أرجو المعذرة..»

النسوة يطالعنه بأوجه مكفهرة انقلبت تدريجيا دلالا متصابيا لا يليق بأعمارهن.. كان وسيما مع مسحة خشونة، ولابد أن ذلك راقهن كثيرا، فقد غمغمت إحداهن مدعية الارستقراطية:

- وأنت..؟

ابتسم ابتسامة باردة باطنها جذل عندما أخرج بطاقته، صارت وجوههن ذات اكفهرار حقيقي، وتراجعن عن الرجل الذي عدَّل الفراشة على ياقته، فلم ينجح إلا بجعلها متهدلة قليلا، وبنبرة وقورة دمدم:

- أهلا وسهلا، هل من خدمة؟

- لنتحدث..

قالها مقرنا القول بإحاطة كتف الرجل بذراعه، ولم ينس أن يغمز لتماثيل الشمع غمزة ماكرة أثارت خوفهن وإعجابهن بآن واحد، فعاودن التهامس المتصابي..

في حين، اصطحب طريدته إلى ركن غير منزو كثيرا، وبنبرة هادئة ذات رنة واثقة قال (سياف):

- السيد (سراج عدوان) بشحمه ولحمه، يا له من شرف!



- شكرا، هل من خدمة أؤديها للجهة التي تمثلها؟
- أيا كانت؟
- أستميحك عذرا؟
- ألن تسألني - على الأقل - عن الجهة التي أمثلها؟
- آسف، أحاول التعاون قدر الإمكان لا أكثر..
- تتحدث وكأننا بصدد جريمة قتل هاهنا.. على العموم أنا لا أمثل جهة بالضبط وإنما عميل هام، وعميلي هو السيد (جاد الجرجوف).. أراهن أنك سمعت به..
- بالتأكيد، السيد (جاد) واحد من قلائل في عالمنا..
- عالم السحر أم المخطوطات النادرة؟
- كلاهما، بالإضافة إلى عوالم أخرى..
- مثل؟

اكتفى السيد (سراج) ببسمة مغلفة بغموض غير مريح، فدفع ذلك (سياف) إلى سؤاله:

- أتتعاطى مع العفاريت؟
- لم أتحفتنا بهذه الزيارة يا سيادة "مندوب جاد الجرجوف"؟
- للسؤال عن الأحوال وعن.. آه! هذا عمل جميل!

ودنا من لوحة زيتية معلقة، فأشار إليها بطرف سبابته متسائلا:

- أهذه ل(مونيه)؟ أهي أصلية؟
- مقلدة، لم تجب عن سؤالي..
- عادة يدهش الخبراء من معرفتي ببعض أنواع الفنون..
- أنا لم أدهش، لنعد إلى موضوعنا..
- بالطبع، ماذا تعرف عن مخطوطة أجاثا؟

تنفس الرجل بعمق، ثم أجاب مصححا:

- أغاتـه، صحيـح أنـك خبـير ببعـض الفنـون - أو في التظاهر بأنك كذلك!-، لكنك فاشل في المخطوطات القيمة..

- دعنـي أصدقك القول، مع اللوحات أجد الأمر منطقيا كونها جميلة وتصلح للزينة، أما المخطوطات فلا أجدها قيمة إلى هذا الحد، وخصوصا تلـك المتعلقة بالخزعبلات السـخيفة، كما أنهـا لا تصلح إلا للدس داخل الخزانات ملفوفة بشرائط ملونة مثل شهادات التقدير!

- هذا تفكير سطحي للغاية..

- أشكرك!

- أنت كثير السخرية يا سيد..؟

سارع (سياف) بمصافحته قائلا:

- لم نتعارف بعد؟ سامحني، (سياف سرخس)..

- مسيحي؟

- لا، مسلم ولله الحمد..

- مسلم؟!

- أجل مسلم، لَم كل هذا الاستغراب؟

لحسن الحظ لم يجَادله الرجل في هذه المسألة، بل تمشى قائلا:

- ولماذا يسأل السيد (جاد) عن المخطوطة؟

- خلتك ستخمن الجواب!

توقـف الرجل عن سـيره، والتفت إلى (سـياف) محدِّجا إيـاه بنظرات كلها اهتمام، كأن اهتمامه ظهر بغتة من العدم!

- ماكر وساخر!

- أتقصد طبيعتي؟

- أهذه حقا طبيعتك سيد (سياف)؟

- أظن!

أرجح الرجل رأسه بطريقة لا معنى لها، ثم تنهد..

قال مخرجا من جيبه علبة سجائره:

- أتدخن يا سيد (سياف)؟

- أجل..

- كثيرا؟

- أستهلك في العادة ثلاث علب في اليوم!

- ألا تخاف على صحتك؟

- كخوفك من فشل إحدى تنبؤاتك، هل سنظل نثرثر عني ونغفل موضوعنا؟ إن السيد (جاد) لا يحبذ..

قاطعه الرجل بغلظة هذه المرة:

- لا يحبذ ماذا؟ ماذا تعرف عنه أصلا؟ لقد أولجت - يا مسكين - قبضتك في جحر الثعبان وصار الرجوع للوراء أمرا عزيز المنال!

- لحسن الحظ أنهم اخترعوا لأجل ذلك الترياق!

- أنت تسخر وتسخر دون أن تعلم ما يدور بالضبط!

- حقا إن الجهل نعمة، ما هي الرسالة التي تود إيصالها بالضبط؟

- قل لسيدك..

- هو ليس سيدي وأنا لست تابعا له، أنا موظف لديه فحسب..

- ما دمت قد صافحت يد (جاد) فقد صرت إذن خادمه المخلص وللأبد!

- قلت لك أنني..

- أخبره أن المخطوطة رهن إشارته!

وانسحب بعصبية وعلى عجلة جعلته يكاد ينزلق على البلاط!



الفصل التاسع

رفع (سياف) سماعة هاتفه بخشونة..

كان شعره مبتلا وقد لفَّ وسطه العاري بفوطة، الماء يتدفق كالأمطار الغزيرة بالتقنية الجديدة في الحمام، وقد بدا وكأنه سيظل أسفل الماء الساخن للأبد..

لكن دخول ذلك المخلوق أثار استياءه.. كان يمرغ بدنه بالصابون عندما تفاجأ بذلك الهر الأسود يدلف إلى حمامه!

ظلَّ الهر واقفا يراقب (سياف)، وتوقف الأخير عما يقوم به متأملا بدهشة عميقة الحيوان الرشيق صاحب الفراء الأسود اللامع، كانت دهشته بقدر استنكاره من كيفية تمكنه من الدخول للجناح أصلا!

هكذا أوقف حمامه وخرج مسرعا من أسفل الدش، فهرول الهر خارجا.. وخرج (سياف) بدوره، فأبصر الهر واقفا يراقبه كالمنحوتة الرخامية!

تناول (سياف) سماعة الهاتف، وانتظر هنيهة قبل أن يقول بلهجة حاول منحها تماسكا كي لا يصرخ بعصبية:



- ثمة هر يتسكع في أرجاء مسكني! الطابق الثاني عشر جناح رقم ٢٤٦.. لحظة، لا أعرف كيف دخل، وأنتظر وبكل شغف تفسيرا مقنعا منكم!

وهنا صعد الهر على السرير، فوضع (سياف) السماعة على الرف قائلا بحدة شرسة:

- ليس إلى هذا الحد! انزل قبل أن أقذفك من الشباك!

وانطلق في أعقابه، فجفل الهر ونزل بسرعة، ولكن وقبل أن يهبَّ (سياف) لمطاردته وطرده توقف أمام الفراش مفكرا..

ببطء وحذر مدَّ أنامله، فالتقط القلم الفضي المزخرف من على الفراش..

كان شبه متيقن من أن فراشه كان نظيفا من أية أغراض، هذا قبل استقرار الهر فوقه!

ونظر إلى الهر متسائلا بسخرية عصبية:

- ماذا؟ أوضعته أنت إذن كهدية ترضية؟

تفكر في ذلك لثانيتين ضحك بعدهما لحماقته، ووضع القلم على الكومودينو بجوار الفراش قائلا بتهكم:

- شكرا على الهدية على كل حال!

ونظر مجددا، فوجد أن الضيف غير المرغوب به قد اختفى!

- «بربك! لا تجبرني على قضاء الأمسية بحثا عنك!»

انخفض لينظر أسفل السرير فلم يجده..

ثم تصاعد طرق مباغت على بابه جعله يتحرك صوبه، ففتحه ليجد خادما من خدم الفندق يقول باحترام بالغ:



- سيدي أنا هنا لكي أدقق في فحوى شكواك..

- شكرا يا حضرة الضابط! ادخل بسرعة..

دخل الخادم و(سياف) يقول متلفتا حوله:

- كان هنا قبل قليل، أرجوك جده بسرعة وأخرجه من هنا..

- أمرك سيدي، ولكن أخشى أن يستغرق هذا بعض الوقت..

- أنا خارج على أية حال، أنه المهمة قبل عودتي..

- لك ذلك سيدي..

وهكذا دخل (سياف) غرفة نومه لتبديل ثيابه، والخادم عاكفٌ على تفتيش الصالون ببطء ودقة..

كان بحاجة لقلم بطبيعة الحال قبل الخروج، فالتقط القلم الفضي المزخرف هامسا لنفسه:

- ويقولون أن الهررة لئيمة!

قالها مقربا القلم من ناظريه، زخارفه عجيبة وتصميمه أعجب، كان مصمما بطريقة لا تناسب الكتابة نوعا، سنه مائل بتعارض مع طول القلم، وبانحناءة شبه ملتوية، كأن سيارة مرت فوقه مانحة إياه شكلا تعبيريا، كأنه عمل تجريدي!

لكنه دسَّه في الجيب العلوي على أية حال ومضى في سبيله..

في الخارج وجد مفاجأة قاسية بانتظاره.. أحدهم رسم علامات مخلبية على جانب سيارته الأيسر ولاذ بالفرار!

أطلق شتيمة بذيئة ألحق بها شتيمةً أكثر بذاءة، وانتابته نوبة حنق فظيعة لما حصل.. أحدهم سيدفع الثمن باهظا، فهذه سيارة BMW اقتنائها حلم عزيز المنال هذه الأيام!



ورغم أن التأمين هذه المرة خدمٌ له، إلا أنه قاد سيارته مفكرا في كنه الفاعل، وانتابته حالات دفعته إلى لكم النفير عدة مرات بقبضته، حتى صرخ أخيرا ومن بين أسنان تكاد تتحطم من وطء ضغطها ببعض:

- آه لو أجده فقط!

ارتفع لحن كلاسيكي لمعزوفة هادئة من هاتفه النقال، فوضع السماعة اللاسلكية على أذنه وضغط زرها قائلا:

- هنا المندوب..

- «تهانينا!»

ميَّز صوت السيد (بدر) على الفور، فردَّ قائلا:

- شكرا، لكن على ماذا؟

- «المخطوطة! استلمناها عن طريق السيد (سراج) شخصيا!»

- غريبة، لقد بدا وكأنه مستعد لبذل حياته في سبيل ألا يظفر السيد (جاد) بها..

أتاه صوت ضحك ثم:

- «يبدو وأن لكل شيء ثمنا! حتى السيد (سراج) يسيل لعابه أمام المال وبغزارة!»

- أعتقد أنه طلب رقما فادحا ومؤذيا..

- "ليس للسيد (جاد)، والآن همتك يا بطل.."

- طلباتكم أوامر..

- "لا شيء مم يثقل الكاهل، فقط طلبية ورود للنجمة (جلنار)، فالليلة افتتاحية فيلمها.."

- أهذا كل شيء؟ دعني أذكرك أن المندوب ليس مجرد ساعي بريد كي..

- "الحق معك، لكنه أمر عظيم الشأن لو أنك تعلم!"

- إذن فليستمتع به موظف غيري..

- "إنها أوامر السيد (جاد)، فقد أراد لكما التعارف.."

- لماذا؟ هل سيزوجنا؟

- "أنت ظريف! وأرجو ألا تنزعج من المهمة.. اعتبرها دعوة لطيفة.."

- أكره المسميات بغير محلها.. على العموم أعطني تفاصيل أكثر كي أبدو على اطلاع أمامها، كاسم الفيلم وعما يدور بالضبط..

ثم أنهى المكالمة بشيء من العنف..

كان افتتاح الفيلم مثيرا، فقد احتشدت جحافل المصورين، المرتزقة والمعينين برسمية، ومجموعة هائلة من المقدمين والصحافيين.. الخ

جيش من رجال الأمن، وجيوش من المعجبين والمعجبات يحملون بوسترات الفيلم والصور الخاصة ببطلي الفيلم بغية توقيعها..

وأمام سجادة حمراء توقفت الليموزين، فهرع أحد رجال الأمن لفتح بابها.. بداية، هبطت ساق عارية بضة، تبعتها ساق أخرى ملفوفة بقطعة قماش تابعة لفستان سهرة قرمزي اللون، وهبطت النجمة الخمسينية الصاعدة ملوحة للجميع بسعادة، وقد لفت شالا حول كتفيها العاريتين، وعلى جيدها تألق عقد من الماس خطف بريقه الأبصار..

اشرأبت الأعناق لرؤية المرأة التي تبدت فاتنة، وتفجرت فلاشات الكاميرات كأن ألف رادار التقط صورا لسيارة مسرعة.. قد كان الأمر جنونيا..

وقعت الفنانة بعض الأوتوجرافات، ثم تموضعت قليلا أمام بوستر الفيلم في رشاقة، بعدها تأبطت ساعد البطل الشاب الذي لم يلق ترحابا حارا مثلها، فقد سرقت المرأة الأضواء كلها!



وفي صالة العرض جلس (سياف) ممتعضا، فقد رفضوا إدخال أية أطعمة حتى وإن كانت فشارا أو عبوة مياه غازية، لأن ذلك ممنوع في العرض الأول والخاص بوجود أبطاله، حتى "بوكيه" الورد الذي ابتاعه بسعر باهظ تركه خارجا بحوزتهم.. ولم يحاول استعمال بطاقة المندوب لدفعهم إلى عمل استثناء له، فقد كانوا يؤدون واجبهم..

إذن، أظلمت القاعة وابتدأ العرض..

بعد مرور نصف ساعة سرد خلالها الفيلم حبكته بالكامل، غفا (سياف) وتصاعد صوت غطيطه، التكييف كان باردا والمقاعد وثيرة مريحة، كما أن الفيلم سخيف تماما كما وجده..

قصة من أسخف القصص، يزعم الفيلم أنه يعالج قضية مرهفة وهي بالأصل تافهة وتثير الحفيظة لأقصى الحدود، حكاية عن أرملة وأم - تقوم (جلنار) بدورها في أداء عادي غير متميز - تكتشف أن ابنتها ورثت الشذوذ عنها، وحبيبها - الممثل الشاب - منتسب لإحدى الجماعات الدينية المتطرفة!

ولدى ظهور رجال الجماعة بسواطيرهم ولحاهم وجلابيبهم البيض وأغطية الرؤوس، تمتم (سياف) بهمس مستهزيء:

- ها قد وصل ضيوف الشرف في كل فيلم!

وكالعادة ابتدأ الرجال الحديث عن كلمة الحق التي يجب أن تطغى على الباطل، وكيف يتوجب عليهم إعدام المرأة وابنتها كي يختفي الشذوذ عن الأرض، ولا ضير من تفجير المكان بحزام ناسف كي يرى العالم بأسره أنهم لا يتهكمون، وهكذا صاروا وحوشا دموية تبغي مطاردة الأرنبة البريئة وابنتها فقط لأنهما من المثليين التعساء!



عندئذ، قرر (سياف) أن هذا أكثر من كافٍ واستسلم لسلطان النوم..

أفاق على صوت تصفيق ارتجت له أرجاء القاعة، فصنع المثل غير دار أين هو بالضبط..

نهض من مكانه، وصارع الجموع التي احتشدت حول الممثلة، وبلغ مسامعه أصوات هتاف تثني على تلك «المقطوعة السينمائية التي عزفت بمهارة منقطعة النظير»! و«أداء الممثلة الذي فاق كل أداء»!

كان يجاهد للخروج من الحشد حتى يتمكن من تدخين سيجارة، إذ لا يعقل أن يحادثها وسط المعجبين ورجال الإعلام والأعمال، ليس هذا وقته..

أخيرا وجد نفسه متحررا، فعدَّل من هندامه، وتقدم اتجاه منفضة سجائر رخامية على شكل مكعب ضخم، حيث وقفت فتاة جذابة ترتدي نظارات طبية وتدخن سيجارة هي الأخرى..

ثبت سيجارته بين شفتيه، وتظاهر بالبحث عن قداحة رغم وجودها في جيبه، فرمقته الفتاة بنظرة ناعسة قبيل قولها بضجر مناولة إياه سيجارتها:

- لا أملك واحدة، فتفضل وأشعل سيجارتك بها!

وهنا أخرج علبة أعواد الثقاب متصنعا عدم الفهم، وقال:

- أستميحك عذرا؟!

فضحكت، وابتسم هو الآخر مدمدما وهو يشعل سيجارته:

- أرجو المعذرة، يبدو وأن موقف إشعال السيجارة قد طاف بك مرارا وتكرارا حتى مللتِ منه..

- بكل تأكيد..



كانت شفتاها داكنتين من فرط التدخين، حتى أسنانها فقدت بياضها ومالت لاصفرار قبيح..

تأمل البطاقة المعلقة حول عنقها باهتمام، ثم تساءل:

- مندوبة؟

- هل في ذلك ما يضر؟

- لم أعلم أنهم يوظفون النساء الآن!

- هل أنت رجعي؟

- لا، لكنها أول مرة أقابل بها مندوبة..

- أرجو ألا تعارض الفكرة..

- أراها بمحلها تماما، إنها الوظيفة الأمثل لأنثى!

- ماذا تعني؟

- ماذا؟

- أتحاول التلاعب بالألفاظ؟ ماذا قصدت بقولك أنها وظيفة مثالية لأنثى؟

- رويدك، أهكذا تعاملين زميلا لك؟

- مندوب أيضا؟ لماذا لا تعلق بطاقتك إذن؟

- أستخدمها عند الحاجة فقط..

- آها! منطق القوة إذن ما دفعك إلى ذكر أمر وظيفة المندوب الصالحة لامرأة!

- كيف؟

- بسبب تعليقي البطاقة! بهذه الطريقة تتفتح أمامي كل السبل بكل بساطة، أما عنكم - يا معشر الرجال - فعليكم التبجح بقواكم الخفية



أمام غطرسات بعضكم البعض، قبيل الاستمتاع برؤية المذلة والمهانة في عيون خصومكم لدى إشهاركم البطاقة الثمينة في وجوههم!

فكر (سياف) بأن: «ما عليكِ سوى ارتداء تنورة قصيرة كهذه والتضمخ بعطر أنثوي فواح، وعندئذ يصير أي رجل لعبة بين يديكِ دون الحاجة إلى بطاقة مندوب حتى»!

كذا فكر، لكنه لم يسمح لأفكاره بالانسياب عبر لسانه.. قال فحسب نافضا بعض الرماد فوق الرمل الموضوع في جوف المنفضة الرخامية:

– معكِ كل الحق!

– أتحسبنا زوجين؟ قل رأيك وبمنتهى الصراحة ولن أغضب..

قال ساخرا هذه المرة:

– بكل تأكيد، بل ستنقمين علي وتخزني الضغينة كالناقة حتى تحين ساعة الانتقام!

– ظنك في النساء بغير محله.. من تمثل على فكرة؟

– مجرد معجب بالفنانة وفنها، ماذا عنكِ؟

– أنا مندوبة عن الفنانة.. وفنها!

– حقا؟ هذا رائع!

راودته خاطرة مفادها: «مصادفة ممتازة، قد لا أكون مضطرا التملق تلك المرأة السخيفة، لكني لا أمانع فعل ذلك مع هذه الآنسة اللطيفة»!

– «ما رأيك في فيلمها؟»

– «أوه.. وجدته مبتذلا.. بعض الشيء!»

– "أنت إنسان صريح، وأنا احترم الصراحة.."

– "أفهم من كلامك أن الفيلم لم يعجبكِ.."



- "لم أشاهده.. التريلر ذكر كل شيء دون عناء، فكرة سخيفة وتمثيل أسخف.."

وضحكت بعصبية هامسة:

- لو سمعتني النجمة الكبيرة لطلبت استبدالي بمندوبة أخرى أكثر تملقا لموهبتها الضعيفة!

- لا تقلقي، سركِ في بئر عميق!

- المضحك بالأمر أنها كانت شبه منسية، الكل توقع لنجوميتها الأفول بعد آخر فيلم أطلق عليها رصاصة الرحمة، أو أن هذا ما اعتقدناه جميعا!

- ومن منقذها يا ترى؟

- لست أدري تماما، لربما كان هذا الفيلم بمثابة منقذها الحقيقي..

- إذن فالمنتج هو المنقذ!

- أجل، بإمكانك قول ذلك، إن السيد (جاد الجرجوف) منتج معروف في الأوساط الفنية!

- هل قلتِ: جاد الجرجوف؟!

وهنا تحرك القلم!

تفاجأ (سياف) بادئ ذي بدء.. ظن أن صرصورا قد تسلل إلى داخل بدلته، لكنه تفاجأ برؤية طرف القلم المخفي في الجيب يتحرك من تلقاء نفسه!

لطم موضع القلم، فتساءلت الفتاة بريبة:

- أأنت بخير؟

- أنا؟ أجل أجل! أين الحمام؟

- من هناك..



شكرها، وتحرك مندفعا باتجاه حمام الرجال، وقد أمسك بموضع قلبه حيث الجيب الذي علق عليه القلم، فبدا كالمصاب بأزمة قلبية..

بالداخل نزع القلم باحتداد، فشعر بذبذبة تماثل ذبذبة الهاتف النقال حين يكون بوضعية اهتزاز، فتح قبضته ببطء وحذر، فتفاجأ أكثر عن ذي قبل عندما وقف القلم على سنه الملوية فوق راحة يد (سياف)، وكأنه بيد حاو خارق القدرات!

تأمل (سياف) القلم الفضي المزخرف وقد عجز لسانه عن النطق..

كان القلم واقفا على راحته ويرسل إشارات ذبذبة عجيبة، فهمس لنفسه:

- ما هذه الشعوذة؟ لابد وأنه قلم مشعوذ!

ثم تذكر الهر، فتبسم بعصبية.. لربما كان الهر مشعوذا أو جنيا على صورة حيوان، وهذا هو قلمه!

سمع صوت تدفق مياه أحد صناديق الطرد، فسارع بدس القلم في جيبه، وتظاهر بغسل يديه من ماء الصنبور..

خرج ليجد الفتاة مختفية، فتنهد باحثا عنها ببصره، لكنه لم يلبث أن أخرج القلم من جيبه، فالذبذبات كانت مزعجة..

فما إن صنع حتى لاحظ أن طرف القلم يشير بإصرار إلى نقطة ما، تماما كعصي الجذب المغناطيسية التي يستعملها أولئك الذين يبحثون عن كنوز مخفية في أعماق الأرض..

كان الجذب والتذبذب أقوى عن ذي قبل، ووجد (سياف) نفسه منصاعا لقيادة القلم، فسار متتبعا تلكم الذبذبة والإشارة عله يفهم ما يحدث..



أخذ القلم يغير اتجاه طرفه، و(سياف) منقاد وراء إشاراته العجيبة، حتى اقتاده خارجا، وسار على امتداد الرصيف متمتما وهو يتلفت حوله:

- لو رآني أحد الآن..

وفجأة سكن القلم..

سقط من يد (سياف) أرضا، فمال الأخير ملتقطا إياه وهو يهمس في خلاص:

- أخيرا!

لكنه ظلَّ على انثناءته، مراقبا جانب سيارة «المازاراتي» الفضية التي أوصله القلم إليها!

- «هل أستطيع مساعدتك؟»

اعتدل والتفت للوراء، فوقع بصره على شاب يعقص شعره كالفتيات خارج من حفل العرض السينمائي الأول، فدسَّ القلم في جيبه متسائلا:

- هل هذه سيارتك؟

أجاب الشاب بفجاجة:

- أجل، وإن يكن؟ أتود شراءها؟

أخرج بطاقة المندوب قائلا بفجاجة مماثلة وقد كاد يقحمها تحت أنفه:

- لا أبدا، لكنني أكره أولئك الذين يخدشون سيارات الآخرين ثم يلوذون بالفرار دون ترك ملحوظة كأن شيئا لم يكن.. ألا توافقني الرأي؟



الفصل العاشر

لم يجد (سياف) المشعوذ المتنكر على هيئة ذاك الهر في غرفته!

بحث عنه في كل ركن وزاوية، أسفل وداخل كل قطعة أثاث، فلم يتمكن من العثور عليه..

استدعى الخادم الذي أرسلوه، ولدى سؤاله، أكد الشاب أنه بحث مطولا عن الكائن صاحب الفروة السوداء المقرفة، فلم يعثر له على أي أثر يذكر..

هكذا تمدد (سياف) في فراشه الوثير وأنامله تلتف بإحكام حول القلم الفضي، تأمل زخارفه متسائلا عما حدث الليلة في الحفل السينمائي..

استسلم للنوم أخيرا، لكنه أفاق عقب برهة بوجه غمره العرق، ونهض كي يغسل وجهه في الحمام، فلما فرغ، نظر متأملا صورته المنعكسة في المرآة..

كان واجما، وتذكر الوجه الذي كان يراقبه في الظلام، وجه متجهم لشخص قبيح، عريض وذابل، وأنفه طويل مدبب كمشعوذ في حكاية



ما للأطفال، وقد تستر بالعتمة مراقبا إياه في نومه بعينين جامدتين برقتا كأعين الضباع أو الهررة في أعماق العتمة الدامسة!

غسل وجهه مجددا دون أن يتنبه لذلك، ثم ضغط أسفل جفنيه، الآن بات من المستحيل عليه النوم، عليه إذن البحث عن تسلية ما حتى مطلع الفجر..

هكذا، عرج على المطبخ فأعد لنفسه القهوة، ثم احتمل الفنجان وسار بتمهل حتى بلغ التلفاز فأشعله..

جلس على الأريكة مقلبا القنوات بأزرار جهاز التحكم، توقف مطولا عند برامج الغناء، شدته وجوه وأجساد المغنيات الشابات الفاتنة، فوضع الجهاز وطفق يشرب قهوته..

كن يتراقصن طيلة الوقت، الموسيقى نشاز لكنه وجد نفسه يدندن عليها باستمتاع! وتحركت قدمه الحافية على الإيقاع كما لو أن الطرب قد اعتراه حتى أخمص قدميه.. كلمات تافهة.. لحن سخيف مكرر.. لكنه استمتع أيما استمتاع!

كانت المطربة الشابة تلوي خصرها كالحية وهي تشدو بأتفه كلمات يمكن سماعها وبعقيرة صاخبة، لكنه لم يكترث، حتى وعندما تردد صوت من أعماقه يأمره بتغيير المحطة المبتذلة، وأخذ يتضرع له أن يكف عن رمق هذا الأذى باستمتاع مراهق أحمق! لم يكف.. تمادى أكثر عندما وضع القهوة جانبا ونهض مباشرا الرقص بحيوية! رقص ببراعة، كان الإيقاع الضوضائي يحركه، ووجد نفسه يتشقلب كأفضل راقص، لم يعلم أنه راقص بارع إلى هذا الحد!

فجأة توقف..



رمق الشاشة الفضية بنظرة طويلة صموتة، خاوية، وتصاعد ذات الصوت من أعماقه ليصرخ: «ما الذي أصنعه بحق الله؟!»

تناول الجهاز بحركة عصبية وسريعة، على إثرها أسقط فنجانه ليدلق القهوة على السجاد.. لم يكترث، غَّير المحطة أخيرا وبعصبية في تزايد، غيَّر بسرعة جنونية متواثبا بين القنوات، ثم لم يلبث أن توقف على نشرة الأخبار كأن نداءً غامضا أمره بذلك..

رفع الصوت أكثر، فوجد المذيعة تتحدث عن مقتل شخص ما في ظروف ولا أغرب، تم بث مقاطع لرجال الشرطة وهم يحومون حول الجثة.. دنا (سياف) متسائلا عن الإرهاق وتأثيره على جسم الإنسان، هل يحلم أم أن أطراف جثة القتيل الذي صورته وكالة الأنباء ملوية بطريقة عقد الحبل؟

التقرير واضح وصريح.. الرجل المقتول وجد على هذا النحو المؤسف والمخيف في غرفة مكتبه، كانت ذراعاه معقودتان على شكل عقدة الحبل! وحتى ساقيه! بدتا على نفس شاكلة الذراعين، كيف يمكن حدوث ذلك؟ يبدو الأمر مستحيلا من الناحية العلمية، لابد وأنهم يمزحون..

صوت المعلق يقول بوضوح:

- وجدت الجثة على هذا النحو المروع، وقد حارت الشرطة في كيفية وقوع هذه الجريمة المعقدة لرجل مثل جامع المخطوطات الأشهر (سراج عدوان)، رجل المحافل التي جمعت كبار الساسة ورجال الأعمال وشخصيات بارزة من نجوم سينما وتلفاز وطرب، والشهير بقدرته على مطالعة المستقبل بقراءة خطوط اليد!

حدق (سياف) في وجه الجثة ببلادة، أهذا هو حقا؟ لقد انتفخ وجهه كالغريق! هو دون زيادة أو نقصان، بذات البدلة التي ارتداها يوم الحفل!



اقترب (سياف) من الشاشة غير مصدق، ثم التصق بالشاشة كما لو كان يعبر عن ذهوله وصدمته بالخبر بأغرب الطرق..

ظلَّ ملتصقا ومحدقا دون أن يطرف له رمش، لم يفهم سبب تصرفه، حاول الكف عن الحمق والابتعاد عن الشاشة، لكنه بدا وكأنه ألصق جبهته بغراء!

خيل إليه أن المشهد المروع الذي رآه على الشاشة قد خرج إلى أرض الواقع بصورة ثلاثية الأبعاد.. الآن يشاهد وبكل وضوح معالم جثة (سراج)، بذراعيه وساقيه المعقودة بصورة معقدة ومستحيلة كما لو كانت حبالا!

الوجه منتفخ بشدة، حتى العيون جاحظة وخارجة من المحجرين وكأنها انتفخت بفعل منفاخ هواء، حتى اللسان خارج من الفم بصورة مروعة!

انتفض على تشويش التلفاز، فرمقه بخواء ذهن خلا من الصور والأفكار، ونهض لارتداء ثيابه على عجل..

خرج من الفندق إلى حيث سيارته، يجب أن يزور أحدهم فورا..

ظلت السيارة منطلقة بسرعة حتى أوصلته إلى وجهته، إن المشرحة هي أهم نقطة بداية لأي بحث يعتزم القيام به..

وبعد الدخول والاستفسارات ببطاقة المندوب المشهرة، عملوا على إيصاله إلى حيث الجثة أخيرا..

كان الطبيب المناوب يتثاءب بشدة وهو يتساءل:

– لابد وأنك تمثل جهة أمنية ما..

– فعلا.. متى نقلوا الجثة؟



- تمام الساعة الثانية عشرة ليلا.. من هنا..

هبطا درجات معدنية مؤدية لأسفل، ومرت بهما لافتة معلقة دوّن عليها بوضوح: «الثلاجة»

شعر (سياف) ببرودة تعتريه، فتمتم:

- ألم تقوموا بتشريحه؟

- الطبيب الشرعي حاول ولم يقدر..

- ماذا تعني؟

تقدم الرجل دون تعليق، فاستخرج من باب الثلاجة رقم ١٢ سريرا معدنيا رقد فوقه عمل فني لرجل عار عقدت أطرافه بصورة مرعبة!

استخرج الطبيب المناوب مخاطه الجاف من أنفه بلا ذوق قائلا:

- لم ننجح سوى بتخليصه من ثيابه، سمعت الطبيب الشرعي يقول أن الجريمة وقعت بمعجزة خارقة للعادة..

- كيف؟

- ألا ترى العقد الخارقة في الذراعين والساقين؟

- شنيع، لكنه غير مستحيل الحدوث..

- ليس إذا ظلت العظام على حالها دون حدوث أية كسور!

- ماذا تعني؟

كفَّ الطبيب عن التنقيب في فتحتي أنفه، وأشار إلى وضعية القتيل قائلا:

- لقد انثنت العظام كما لو كانت قطعا من المطاط! أي أن أطراف هذا الرجل قد ربطت كالحبال تماما!



الفصل الحادي عشر

استقبل السيد (بدر) (سياف) بترحاب حار، وطلب له..

- «قهوة.. سادة.. لا.. مع سكر.. سكر زيادة!»

- «من السادة إلى السكر زيادة؟ أنت شخص متقلب المزاج يا حضرة المندوب!»

جلسا، وقال السيد (بدر) صانعا من أصابعه شبكة أراح فوقها ذقنه:

- السيد (جاد) مسرور جدا منك..

- لم أصنع شيئا..

- كيف لا والمخطوطة صارت في جيبه؟

- ظننت أنها تخص أحد المتاحف التاريخية..

- بالطبع! لكنك تفهم مقصدي بالضبط..

- أشك..

- تشك؟ ماذا تعني؟

تناول (سياف) من على سطح المكتب مطواة مذهبة لفض مظاريف الرسائل قائلا ببرودة:

- (عدوان) قتل.. لابد وأن الأخبار قد وصلتك..

- أجل، إنها لمأساة، الرجل كان..

- إذن فقد علمت كيف قتل..

- بالطبع، فعل رهيب وشائن..

- أهذا كل ما لديك لقوله؟

- لستُ قاتله إذا كان هذا ما يدور في ذهنك!

كذا ردَّ السيد (بدر) ببرودة منافسة، لكن (سياف) تجاهل نبرته قائلا:

- دعنا نكن صريحين يا سيد (بدر)، وبإمكانك اتهامي لاحقا..

- وبماذا أتهمك؟

- بصاحب الفكر المضطرب! سمني شكاكا، لكن توقيت الجريمة كان ممتازا، كما أن أسلوبها لا يمت بصلة إلى..

- إلى ماذا؟ قاتل محترف؟ سارق؟ أنت لا تدرك حماقة ما تهرف به يا سيادة المندوب..

- بلى، أنا أحمق، أحمق لزيارتي الرجل صاحب المخطوطة.. يبدو وأن زيارتي له قد أصابته ببعض النحس، حيث أنه راقد الآن في ثلاجة المشرحة بطريقة يعجز بها عن فك أطرافه الملتفة ببعضها!

أضاء وجه الرجل بنور الفهم، فصاح ضاحكا ضحكة مجلجلة مشيرا إلى الأغراض الأثرية من حوله:

- أهذا قصدك؟! ألأنه قتل بتلك الطريقة الشيطانية الغامضة خمنت أن..؟! رباه! أنت خيالي أيضا يا بني! أنا لا أجمع هذه التحف بقصد استدعاء الأرواح الشريرة لقتل الناس! يا لخيالك الجامح! إنه يفوق التصور!



- الرجل بدا غير مستعد للتخلي عن المخطوطة، طالعت ذلك في عينيه، صحيح أنه طلب مني بأن أقر عينا، لكنني قدرت بأنه سيهرب بالمخطوطة، يبدو وأنه كان متعلقا بها كثيرا..

- آه! أنت من هواة تبني نظرية المؤامرة!

- وأنا أرغب بترك هذا العمل المشبوه!

لكن الرجل تجاهله بقوة هذه المرة لما دمدم باسما:

- وصلتني بطاقة شكر من فنانتنا الصاعدة (جلنار)، يبدو وأن الباقة التي أرسلها السيد (جاد) قد راقتها كثيرا..

- ألم تسمع ما قلته؟

- الآن لديك مهمة أخرى أرجو أن تكون مستعدا لها..

نهض (سياف) واضعا مفاتيح سيارته على طاولة الرجل، ثم استدار قائلا وخطاه تقوده ناحية الباب:

- سأعود إلى مسكني القديم..

قالها متذكرا (كيرياح)، فعضَّ نواجذه بتحسر، ربما كان مخطئا في تفكيره، لكنه ابتدأ يستشعر رهبة سقيمة من الجو الذي أقحم به نفسه..

خمن أن الرجل سيحاول استيقافه بشتى الطرق، لكنه بلغ الباب وخرج منه عبر صمت ثقيل مطبق..

سار مسافة طويلة مفكرا بكل الأحلام التي رماها وراء ظهره.. لمَ لا؟ ما داموا يملكون ما يكفي لشراء جيش من المندوبين؟ لقد ضاعت الوظيفة وقراره المتسرع كان السبب.. لا.. ليس متسرعا.. هذا عالم كريه يقوم بأمور كريهة تفوح منها رائحة خبيثة كنفس الشيطان، كان عليه الانسحاب قبل تأزم الأمور أكثر..



وبعقليـة عملية للغاية بـدأ يبحث عن المنافذ القانونيـة في عقده، كان في مـأزق محرج، لكنه شـعر براحة نسـبية لخروجه من الجـو القاتم المفعم بالمؤامرات والدسائس، قد تكون وقد لا تكون، لكن البعد عن الشبهات أفضل..

ثـم فكر - مندهشـا- بالتغيرات التي بدأت تطـرأ عليه، كان يرقص بطـرب على أغـان مبتذلة، والآن تعم روحه سـكينة متوجة ببعض الثقة، وكأنه تعلم درسـا من خطأ غير موثوق أو معلن، كان سـليم النية أو هذا ظنه عن نفسه، ولم يكن مستعدا للانحدار كما يعتقد أو يظن.. عن نفسه!

مـرَّ بالسـيارة الرائعـة التـي خلفهـا وراءه، فرمقهـا بأسـف.. وسـار مدندنا وفكره منشـغل بالوظيفة التالية.. شـعر بالآفاق من حوله تتسـع، وابتـدأ يلمح ابتسـامات عـلى الوجوه المـارة به، أكان رهـين محبس (جاد الجرجـوف) أم مـاذا؟ حقـا لم يشـعر براحـة تجاه الرجل.. ولكـن.. هل ظلمه؟ مثله لا يُظلم، مثله يَظلِم عشـيرة بكل الجـاه والمال وباقات الورد المرسـلة للممثلات الفاشـلات، والاسـتيلاء على مخطوطات سحرية من جثث معقودة الأطراف!

ابتـاع صحيفة لرؤيته خـبرا.. لم يثر اهتمامه بقدر ما أثار اسـتياءه، لقد حقق فيلم (جلنار) أرقاما قياسـية في مبيعات شـباك التذاكر، ويبدو وأن المنتج (الجرجوف) قد عرف كيفية توظيف ظهورها على الشاشة لتحقيق ربح مادي بحت، بغض النظر عن القيمة الفنية للفيلم التافه!

طالـع صورتهـا الضاحكـة في الصفحـة الأولى مقلبـا شـفته السـفلى امتعاضا، ثم قلب الصفحات باحثا عن أخبار بشأن الجريمة، لكنه لم يجد!



جريمة يسعون إلى بثها على شاشة التلفاز بحماسة منقطعة النظير ولا تظهر على الجرائد؟ يبدو وأن الحمقى في الجرائد أكثر من أولئك الذين يبثون الأخبار عبر التلفاز..

كوَّر الصحيفة بعد تقليبه السريع لها، ودسَّها داخل إحدى حاويات القمامة مدمدما في سخرية عصبية:

- عليَّ اللعنة إن اكترثت لشيء من هذا الهراء بعد الآن!

لم يكن ترحيب (كيرياح) ب(سياف) حارا بطبيعة الحال، وقد ماطل في إجراء صفقة الإيجار الجديدة، حتى كلَّ (سياف) ووافق على دفع كل ما يطلبه..

هكذا، استعاد (سياف) غرفته القديمة وأحلامه البسيطة، إن فرصة كالتي حصل عليها مع (جاد الجرجوف) تظهر مرة واحدة فقط، وقد ركل فرصة العمر بأسف، لكنه أصر على المضي بموقفه متجاهلا اتهامات بالرعونة ملأت نفسيته وبشدة..

فتح نافذة غرفته وأطلَّ على الحي القديم الداني من المنطقة الصناعية، رمق السوق والمارة بعين الكآبة، وأنصت إلى ضجيج المكائن التي سلبته النوم ليال لا تحصى، ثم عاود النظر إلى الصحيفة المهترئة التي امتلأت خطوطا سوداء بقلم الحبر الجاف حول عناوين الوظائف الشاغرة.. يبدو وألا خيار لديه سوى بالرجوع إلى وظيفته القديمة أمام المجلى في مطعم الحي..

استنشق هواءً مفعما بالروائح الفاسدة فلم ينفر، فقد اعتاد تلك الروائح العطنة، إن الحي يعبق وبقوة بروائح السمك الفاسد ومياه المجارير الطافحة والنفايات المتكومة كالتلال أمام المكب المملوء أصلا،



لا يوجـد مـا ينفر في بيئة اعتادها قبلا، والمضحك أنه شـعر ببعض الحنين للأيام السود التي قضاها هنا.. ربما هو مجرد زعم، افتراء على نفسه كي لا ييـأس أو يقنـط من زوال الرخاء الذي كان يرفـل فيه، مثل الثعلب الذي عجز عن بلوغ كروم العنب المعلقة، فاستاء من حموضة مذاقها كي يواسي نفسه لا أكثر كما ذكرت القصيدة الشهيرة..

قـضى ليلـة صعبـة لاضطـراره النـوم في هـذا الطقـس الرطـب، فقد اعتـاد التكييف المركزي المنعش في مسـكنه في الفنـدق، والآن هو مضطر للإصغاء من جديد إلى أزيز المروحة الصدئة الكريه فوقه..

ثم أتى الكابوس مرة أخرى، للمرة الثانية مذ استعاد الوظيفة لحساب السيـد (جاد)، وللمرة.. الله وحده يعلم كم، مذ ترك منزله القديم حيث ترعرع..

أبـصر الوجـه القبيـح بوضـوح أكثر مـن ذي قبل، ثم تذكـر تفاصيل أخرى مقبضة بشأنه.. تذكر الستارة الخمرية القديمة..

دائما السـتارة اللعينة، كلما دنا لإزاحتها لرؤية ما يقبع خلفها اسـتيقظ غارقا بالعرق والأفكار السوداء المبلبلة! كانت الستارة في دارهم القديمة، وكل ما يذكره هو اسـتيقاظه – وهو صغـير – باحثا عن والديه، بحث في كل بقعة عنهما دون جدوى، كما لو أنهما رحلا للأبد!

ثم خُيِّل له سـماع نداء غامض يدعوه للبحث وراء الستارة، هكذا دنا ببـطء وحـذر ورهبة كـي يرى السر المخبـأ وراء تلك السـتارة، لم تحجب نافـذة ولا حتـى بابا، كانـت موضوعة بطريقة أقـرب للديكور، في زاوية الـدار بحيث تكفي لتغطية.. لنقل مهد طفـل صغير، لا وجود لمهد طبعا ولكن لتقدير المسافة فحسب..



لطالما كره تلك الستارة اللعينة، في مرة خرج منها مهرج سيرك قبيح، وفي مرة أخرى يد مسخ غزيرة الشعر حاولت الإمساك بعنقه، وقد خيِّل له في إحدى المرات سماع نحيب طفل يتصاعد من جوفها!

في الكابوس أبصر الدم الغزير ينبعث من أسفل الستارة، شعر أنه طفل خائف من جديد، واستغاث بنبرة ضعيفة بأبويه كي ينجدانه، لكنهما رحلا!

استيقظ (سياف) محاولا طرد الكوابيس من عقله، كان عليه رفض هذه الوظيفة المشئومة ما دامت لصالح رجل شيطاني السمات ك(جاد)، ملامحه، ملابسه، تلك النظرة الكريهة في عينيه..

قصد الحمام لقضاء حاجته وغسل وجهه، فوجد المياه – لسوء حظه- مقطوعة..

- «عليك اللعنة يا (كيرياح) البغل!»

أدركه السخط الحقيقي هذه المرة، إن يديه ملوثتان، ومثانته ملآنة.. كان هذا كافيا لكي يفقد أعصابه..

خرج باحثا عن منشفة.. سيخرج لإيقاظ اليهودي الوغد العاجز عن دفع فواتيره ريثما يرزقه الله بمؤجر، يجب أن يحطم له على الأقل ذراعا أو..

جمد.. تلفت ببطء.. ووجم..

أبصر ثعبانا يتراقص فوق سريره!- أم تراها العتمة ؟- كان يرفع رأسه على طريقة الكوبرا المتنفشة..

لكنه ليس ثعبانا ولا كوبرا!

بحذر التقط عصا مقشة مكسورة مزمعا الضرب كالمجنون..



دنا ببطء قبل انقضاضه مرة واحدة، ثم صرخت أعماقه قبيل احتشادها على فمه بقهقهة مجلجلة!

كان هذا صديقه القديم صاحب الفروة السوداء النتنة! كان مختبئا أسفل الملاءة تاركا لذيله العنان، فحسبه (سياف) ثعبانا!

رمى العصا جانبا، واقترب مقررا القبض على الحيوان الذي اكتفى بنظرة صوبه، ثم اختفى بأكمله أسفل الملاءة مشكلا هضبة ضئيلة تتحرك ببطء، مم دعا (سياف) إلى الهجوم مطوقا إياه بكلتا يديه صائحا بانتصار:

- أمسكتك يا شقي!

الهضبة تحولت إلى بالون مفرغ من الهواء! والهر اللعين انقشع كذلك في الهواء! إن السحرة يحاولون إثارة جنونه حتما!

قبض على الملاءة ملوحا بها كالراية، أصابه الخبل وهو ينفضها وكأنها ستسقط له هرًا!

لم تفعل بالطبع، لكنها وعوضا عن ذلك أسقطت له - هذه المرة- فتاحة خطابات فضية ذات زخارف على المقبض شبيهة بزخارف القلم!

رمى الملاءة بعيدا، وأمسك بالفتاحة محاولا استعادة تنفسه القديم، ترى فيم تستخدم؟

جرَّب تمزيق الهواء، فطوَّح بها يمنة ويسرة كمبارز يطوِّح بذبابة سيفه..

وأخيرا همس بتؤدة كالشارد:

- هذا الهر وفيٌّ حقا، إنه يراسلني بالهدايا العجيبة طيلة الوقت!



الجزء الثاني



الفصل الثاني عشر

- "اصبر يا هذا.."

سار بخطى حثيثة سادا براحته فمه المفغور بفعل التثاؤب، فما إن بلغ الباب حتى فتحه قائلا بتوجس:

- استر يا رب..

وعلى العتبة، وقف رجل جلمود يرتدي حلة سوداء اللون..

- "ما الحكاية؟"

ردَّ الرجل بغلظة جمة:

- البيك يريدك في التو واللحظة..

أخرج من جيبه ساعة قديمة لينظر كم الوقت، فوجدها تمام منتصف الليل..

تساءل بابتسامة واضعا الطاقية على رأسه:

- البيك يريد إمام مسجد في هذه الساعة المتأخرة؟

تأمله الرجل للحظة قبل أن يرد عليه نافخا متأففا:



- البيك بانتظارك..

وعقب قيامه بتبديل ملابسه والخروج، وجد الإمام سيارة سوداء فارهة بانتظاره، فركب بجوار السائق الجلمود الذي انطلق بأقصى سرعة كما لو كان يهرب من المكان..

عاود إمام المسجد التساؤل وقد تعلق بصره بالطريق أمامه:

- ما القضية؟

- لا علم عندي..

اكتفى بإجابة الرجل المقتضبة ما دام غير مستعد للكلام، حتى وإن كان على علم بشيء..

استغرقت الرحلة حوالي نصف ساعة، صعدت خلالها السيارة شارعا امتد لفوق، حيث يؤدي لفيلا (أنطوان) بيك التي بناها فوق تلة مطلة على منازل الحي البسيطة، كما لو كان يمارس كبرياء رجل الأعمال المليونير على طبقة "البروليتاريا" المطحونة..

فتحت البوابة الفولاذية العملاقة أوتوماتيكيا، فولجت السيارة ببطء ساحة الفيلا الرحبة، حيث حديقتها الغناء بشجرها المثمر وورودها المتفتح، ونافورتها ذات التماثيل الحجرية لحوريات مثيرات الأبدان، في حين نبحت كلاب شرسة سوداء لم تمنع هجمتها سوى قبضة الحارس القوية والقابضة على حبال تنتهي بأطواقها، بينما حملت قبضته الأخرى سلاحا رشاشا..

توقفت السيارة عند الدرج الرخامي المؤدي لباب الفيلا الرئيسي، وهبط حارس الدرجات بسرعة ورشاقة، حيث قام بفتح الباب للزائر الذي اعتلت الحيرة تقاسيم وجهه ذات الذقن المشذبة..



قال الحارس دون النظر إلى وجه شيخ المسجد:

- البيك بانتظارك، تفضل بالدخول..

- ألا تعلم ما الذي يريده مني؟

ظل الرجل صامتا كالآلة الباردة، فهرش الإمام شعر رأسه النابت من مؤخر عنقه، قبل ارتقائه الدرجات السود البراقة حتى بلغ الباب المفتوح..

ما إن عبره حتى توقف للحظات كي يجول ببصره على الفخامة التي تميزت بها كل قطعة أثاث داخل الفيلا الواسعة.. كان هنالك تمثال ذهبي عملاق على شكل طاووس نافش ذيله، كفيل ثمنه بجعله يقود سيارة جديدة..

لكنه لم يطل النظر، واكتفى بوضع يد خلف ظهره آمرًا الأخرى بمداعبة لحيته متمتما لنفسه:

- سبحان الذي وهب!

لمح أحدهم يهبط درجات السلم العريض، فخفض يده كي يشبكها مع الأخرى مبتسما بدعة.. القادم كان رجلا وقورا يرتدي ثيابا بالغة الأناقة، قال وهو يتقدم باتجاه الإمام:

- الشيخ (صالح)، أليس كذلك؟

- بشحمه ولحمه..

- أهلا وسهلا بك، أنا (فؤاد) سكرتير البيك..

- تشرفنا، وأين هو؟

- بانتظارك فوق..



- ما الحكاية؟

- سيخبرك بنفسه..

آثـر الإمام الصمت مجددا وهو يلحق بالسـكرتير عـبر الدرج لفوق، حيـث اقتاده عبر ممـر طويل ازدان جانباه بشـتى أنواع اللوحـات الزيتية ذات الإطـارات الفاخـرة مذهبة اللون كثيرة الزخـارف، ولم يحب الإمام كثيرا بعضها المتمثل بالمسـيح (عيسى) عليه السلام وتلامذته الحواريون، وكذلك والدته العذراء (مريم)..

أخـيرا، بلغـا البـاب في آخر الممـر، فطرقه السـكرتير برفـق، ثم فتحه مشيرا للضيف باحترام كي يدخل..

كانـت حجرة مكتب واسـعة وعلى درجـة عالية مـن الفخامة كما هو متوقع، على أرائكها جلس رجل كهل وشاب، وثلاث نسوة، إحداهن - التي في الوسط- امرأة حسناء أنهكها كثرة ما ذرفت عيناها من الدمع، في حين تحاول فتاة بارعة الحسن تشابهها وعجوز شمطاء تهدئتها..

وأمـام النافـذة التي تحتل جـدارا بأكمله وقف (أنطـوان) بيك بوقاره وسيجاره وملابسه الخضراء الأنيقة باهظة الثمن، كان يرتدي خاتما ثمينا مـن الذهب الخالص في واحـد من أصابع يده اليـسرى التي تربت بحنو على فروة هر رمادي اللون يقف على إطار النافذة الواسـع، وقد حمل الهر في عنقه طوقا جلديا يتدلى منه صليب فضي خيل للشيخ أنه يراه مقلوبا!

- "وصل الشيخ (صالح) يا سادة.."

حلقـت أبصارهم صوبه، بعضها حمـل طابع التلهف - خصوصا من قبل المرأة الباكية- والبعض الآخر الشذر أو الفضول..



(أنطوان) بيك وحده حملت نظراته الثابتة اتجاه الإمام حيادية تامة، فقال دون أن يتزحزح قيد أنملة:

- وأخيرا، مرحبا بقدومك إلينا يا شيخ (صالح)..

- هذا من دواعي سروري، ما الحكاية؟

- في الواقع.. لا أعرف كيف أبدأ!

نهضت المرأة بعدما تمخطت في منديلها مجددا قائلة بانتحاب:

- إنه ولدنا يا دكتور (صالح)!

رفع الإمام الوقور يده قائلا ببسمة مرتبكة:

- مهلكم، أظنكم قد أخطأتم الشخص المعني فأنا لست طبيبا..

ردَّ (أنطوان) عليه ودخان سيجاره يهرب من منخريه:

- نعرف من تكون بالضبط يا سيدي..

- ونطلب مساعدتك لنا بكل السبل الممكنة..

قالتها المرأة متضرعة معقبة، ومن جديد انهمر فيض من دموعها..

هرش (صالح) جبهته قائلا والحيرة بادية عليه:

- ما باله ولدكما؟

- أفضل أن تراه بنفسك.. (فؤاد)؟

نظر الشيخ إلى السكرتير الذي تبسم بتحفظ وهو يشير جهة الباب قائلا:

- من هنا يا شيخ..

تبعه الرجل عبر الممر من جديد، حتى توقفا أمام باب لحجرة ما..

- "هذه حجرة البيك الصغير، تفضل بالدخول.."

نظر الشيخ إليه متسائلا:

- ألن تدخل معي؟

- أفضل ألا أفعل يا سيدي.. حظا موفقا!

ولـدى انصرافـه، بدت خطواتـه متعجلة كما لو كان يلـوذ بالفرار من مواجهة الشيطان شخصيا!

- "تصرف مشجع!"

ونظـر الشـيخ (صالـح) إلى الباب الذي بـدا الآن كبوابـة مؤدية لعالم مجهول مخيف، فتنفس بعمق، وتوكل على الله، ثم فتحه ودخل..





الفصل الثالث عشر

- «كيف وجدته؟»

بزغ السؤال القلق على لسان مدام (ماريا) حرم (أنطوان) بيك، فأجابها الشيخ قبيل أخذه رشفة من فنجان قهوته الخالية من السكر:

- معقدة الحال التي هو عليها..

- إلى أي حد؟

- إلى أقصى حد!

شهقت المرأة وكفها يغطي فمها، في حين سأله (أنطوان) مترددا:

- هل تعتقد أن بالإمكان مساعدته؟

تحولت كل الأنظار إلى الشيخ (صالح)، الذي تأمل فنجانه شارد الذهن..

- "كيف بدأ الأمر معه؟"

تكفلت الفتاة بالإجابة:

- بدأ عندما.. حاول الاعتداء علي!

- من تكون الآنسة؟

- أنا شقيقته!

أطلق تنهيدة تساءل عقبها:

- وبعد؟

ردَّت الأم منتحبة:

- تغير يا سيدي هكذا دونما مقدمات! صار الشر بعينه بعدما كان ألطف فتى.. صار يتحرش بالكل، ويضرب الكل، شتمني وشتم أباه ونعتنا بالفجَّار الأوباش!

- هل ذكر شيئا عن نفسه؟

- ماذا تعني؟

- هل أطلق على نفسه اسما أو صفة؟

تطوع الشاب الجالس بالإجابة هذه المرة، فقال:

- بلى، ذكر ذات مرة أنه "مقاتل الدجال" الذي لن يرحم أعداءه!

- ومن حضرتك؟

- صديقه المقرب، بالأحرى كنت كذلك!

- هل أصابه الصداع في حالات متقطعة لم تُجدِ معها الأدوية نفعا؟

- "أجل، كثيرا جدا ما أصابه ذلك.."

كذا أجابت الأم متطوعة، ثم استطردت:

- أحيانا كان يصدم جبهته بالخزانة أو الجدار من شدة الصداع..

- وقبل إصابته بالهيجان هل بدا خائفا جدا؟ هل اشتكى من رؤية خيالات ما؟ موتى يسيرون ليلا على سبيل المثال؟

- "موتى يسيرون ليلا؟! ما هذا الهراء الذي تقوله؟!"

نظر الشيخ (صالح) إلى الكهل الذي رمقه بنظرات استنكار قبيحة، في حين أجاب الصديق الشاب مرتبكا:



- في الواقـع أجـل، يبـدو أنك تعـرف عم تتحـدث يا سـيدي.. كان يتكلـم عن أميرته التي قتلوها حرقا لأنها أحبته، والآن يراها في كل ليلة، بل ويعاشرها معاشرة الأزواج لزوجاتهم!

أخرج الشـيخ حبـة من دواء القرحـة كان بأمس الحاجـة لها، في حين سأله (أنطوان):

- إذن؟

- إذن؟

- هل بإمكانك مساعدته؟

تنـاول كـوب الماء الذي جلبـه الخادم مع القهوة، وأجـاب وهو يبتلع الحبة:

- سأحاول، لكن عندي شروط..

- اطلب ما تشـاء، وكن متأكدا من استعدادي لدفع كل ما تطلبه مهما كان الثمن..

- شروطـي متعلقـة بالعـلاج لا المـال، وأولهـا إزالـة كل التماثيـل واللوحات الموجودة داخل غرفته..

هتف الكهل مستهجنا:

- اشتعلت نعرة التعصب الديني!

وقالـت الأم محتـدة ويدهـا تقبض لا شـعوريا على الصليـب الذهبي الصغير المعلق في جيدها:

- إنهـا لوحات وتماثيل للعـذراء (مريم) والإله الابن (يسـوع)، وقد وضعناها لمساعدته في محنته..

خيل إليه أن صليبها الذهبي مقلوبٌ كذلك! لكن تلك الخاطرة مرت مرور الكرام في ذهنه وهو يرد قائلا برصانة:



– سيدتي، إن الإله الذي أطلب عونه في كل المحن إله وحيد، وأنتم الذين طلبتم مساعدتي، فكيف أساعدكم وفق شروطكم ومعتقداتكم؟

قال (أنطوان) كي يضع حدًا للنقاش الدائر:

– طلبك مجاب يا شيخ (صالح)، ماذا أيضا؟

– بعض مياه الشرب في كوب..

– تقصد مياها مقدسة؟

– بل مياه شرب عادية، من الصنبور!

– شيء آخر؟

– لا شيء حاليا، والآن عن إذنكم..

– إلى أين؟

– أحتاج لدخول الحمام ريثما تفرغون من إخراج التماثيل واللوحات، أرجو المعذرة..

– لا بأس.. (فؤاد)، أرشد الشيخ..

خرج الشيخ (صالح) برفقة السكرتير، فأوصله حتى باب الحمام، قبل أن يسأله بابتسامته الروتينية الخاوية:

– هل أنتظرك أم..؟

– لا ضرورة لذلك، ارحل أنت مع جزيل الشكر..

غادر الرجل، فدلف الشيخ الحمام على عجالة.. كان يشعر بألم ممض في معدته، كأن أحدهم ينخزه بشوكة من الداخل..

غسل وجهه ولحيته بالماء البارد، ثم أخرج شريط الدواء واستخرج منه حبة جديدة، وخرج من الحمام قبل أن يضعها في فمه..



في الخـارج كان هنالـك خـادم قابع بانتظـاره حاملا بين يديـه صينية عليهـا كوب مـاء.. فتناول الكـوب، وشرب منه على مهل بعـد أن ابتلع الحبة، في حين قال ذلك الخادم باحترام تام:

- البيك يسأل ما إذا كنت بحاجة إلى أي شيء آخر..

- شكرا لك وله، هل أتممتم عملية إزالة التماثيل واللوحات؟

- دقائق فقط..

- لا بأس، أين بإمكاني الانتظار؟

اقتاده الخادم إلى الصالون الفاخر حيث أجلسـه على إحدى الأرائك، وقبل رحيله عرض عليه أخذ كوب الماء منه، فرفض الشـيخ بإشـارة من يده، وأخبر الخادم بأنه لا يزال بحاجة لذلك الماء..

بقي الشيخ (صالح) جالسا يقرأ في الماء الفاتحة وآية الكرسي وخواتيم سـورة البقـرة والمعـوذات، متجاهـلا التحـف الغاليـة والأثـاث الفاخر والسـجاد الناعـم الذي يدوس عليـه، فقد اكتفى عقلـه بمنحه ملحوظة بسيطة الكلمات وعظيمة المعاني: "زخرف دنيا.. وكل من عليها فان.."

فـرغ من التـلاوة في الماء، فوضع الكوب عـلى الطاولة أمامه، وأخرج مسـبحته الأبسـيديانية أرمنية الصنع، وبتؤدة شرع يسـبح بحبيباتها ذات اللونين الأسود والبني.. استغفر ربه كما لم يستغفره من قبل..

ثـم حضر الخـادم أخيرا كي يخبره وهـو ينحني بـأدب أن غرفة البيك الصغير جاهزة..

- "توكلنا على الله.."

سارا حتى باب الحجرة، ففتحه الخادم ثم تنحى جانبا والخوف باد عليه، فدعا الشيخ ربه بكف والأخرى ممسكة بكوب الماء، بعدها خطى للداخل مستعيذا بالله من الشيطان الرجيم..

كانت حجرة ذات مساحة هائلة، مؤثثة بكل ما هو غال وفاخر، وكما طلب الشيخ بالضبط تم إخلاؤها من كل ما يمت بصلة للصور والصلبان..

وعلى سرير كأسرة سلاطين ألف ليلة وليلة رقد البيك الصغير وقد قيدت أطرافه الأربعة إلى أعمدة السرير بإحكام!

كان منظرا مخيفا ومثيرا للهواجس، لكن الشيخ اقترب منه برباطة جأش غير عادية، وجلس إلى يمين المريض على طرف فراشه الوثير، وفي عينيه الحمراوين دقق وتمحص قبل وضعه كوب الماء جانبا، وشمر عن ساعده الأيمن، ثم وضع راحة يده على جبهة المريض..

تلا قول الرحمن بنبرة متهدجة:

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

كانت إضاءة الحجرة خافتة، ورغم ذلك تمكن من رؤية بريق غامض في عيني الفتى، فقال له بهدوء:

- أنظر إليَّ جيدا..

ثم تلا الفاتحة وآية الكرسي العظيمة، ولما وجد المريض لا يزال على حاله تلا قول الله عزوجل: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾ حتى آخر الآية الكريمة..

لم تصب المريض حالة صرع كما توقع، فواصل التلاوة حتى ختمها بآية: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾



كانت بالتأكيد حالة مستعصية، فالفتى وأهله مسيحيون، لكنه أراد أن يبين لهم إعجاز القرآن الكريم.. سكب بعض الماء على يده ومسح به وجه المريض، ثم رشه على السرير وهو يتلو قول الله عز وجل: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾

حدق المريض في وجه الشيخ برهة، ثم صاح بصوت متحشرج:

- من أنتِ أيتها السيدة القبيحة؟

كانت تلك علامة طيبة، لأن ثمة سحر يتخيل فيه المريض الرجل امرأة والمرأة رجل، يدعونه سحر الخداع أو الخيال، وهو يدفع المرء في بؤرة الجنون..

إذن فالفتى مسحور، والله وحده يعلم من الذي سحره بذلك الخبث الجهنمي المقيت، فمثل هذا السحر يستخدم عادة في الانتقام، أحدهم يحاول الانتقام من هذا الفتى أو من احد أفراد أسرته..

قرأ عليه قول الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾

ثم عاود غسل وجهه بالماء ولسانه يترنم بالرقية الشرعية..

وفجأة صاح الفتى كالحانق:

- بسار! دام! معايم! بسار! دام! معايم!

وراح يكرر تلك الكلمات العجيبة كالمجنون، فواصل الشيخ التلاوة..

- "بفنيم! بحوتس! عال! تاحت! ليمينا! لسمولا!

بسار! دام! معايم!"



- "باسم الواحد الأحد، الفرد الصمد، آمرك بالإجابة.. من تكون؟ وبأية لغة تتحدث يا ملعون؟"

- "دام! دام! دام!"

تنفس الشيخ بعمق، ثم هتف بصرامة شديدة:

- أجب وإلا واصلت تلاوة القرآن دون توقف..

- نم تنأ اهتيأ تديسلا تحيبقلا؟

- ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

- انتظر!!

وكانت عيناه شاخصتين تتأملان السقف في رعب، فمه غارق باللعاب والزبد، وأطرافه متصلبة تماما..

قال الشيخ بصرامة أشد هذه المرة:

- من تكون؟

- أنا (ملوخلاخ) الشيطان، يهودي الديانة، ولا تحاول إخراجي..

- عليك لعنة الله يا أحقر مخلوقاته!

ضحك الفتى حتى سال لعابه على جذور عنقه، فتساءل الشيخ:

- إذن فقد كنت تحادثني بالعبرية قبل قليل، أليس كذلك؟

- أني روتسيه ليشون!

- كفَّ عن هذا يا ملعون..

- بسار! دام! معايم!

- كفى! ماذا تقصد بهذه الكلمات الكريهة؟

- قصدت بها هلاك شخص..

- هلاك الفتى الذي تقوم بأذيته أيها اللعين؟

- لا، هذا الفتى هالك لا محالة! عال! تاحت! دام! دام! دام!



- اخرس يا دنيء! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..
- كفى!
- أراك قد ترددت الآن..
- كفَّ عن إثارة الطنين في سمعي والتشويش في بصري..
- لا بأس، ولكن شرط أن تغادر حالا جسد هذا الفتى..

ابتسم ابتسامة بدت مخيفة، وبصوت أجش غمغم:

- من قال بأني داخل جسده أصلا؟
- ماذا تقصد؟

تجاهله، وطفق ينشد تراتيل دينية وكأنه في قداس كنسي، فتلا الشيخ بخشوع وبصوت جميل:

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾

- محريخا! محريخا! متاي نغمرا؟ متي نغمرا؟!

رأى أبخرة تتصاعد من شعر الفتى، في حين كان الأخير يصرخ ويصرخ بكلماته غير المفهومة، حتى صرخ أخيرا في ذعر:

- توقف! سأنفذ كل ما تريده لكن توقف!
- أراك مستحقا للحرق يا (ملوخلاخ)!
- لقد وقعتَ في الفخ دون أن تحسب لذلك حسابا!
- حانت ساعتك الآن أيها الجرو الابليسي..
- أقسم لك أنه فخ، فخ نصبه لك أهل هذا الفتى!

وانخرط بالبكاء، فتساءل الشيخ بهدوء:

- أتحاول خداعي أيها الكاذب الأثيم؟ ألا تدرك بأني أعلم عن ألاعيبكم ومكائدكم القذرة التي تحاولون إيهامنا بها؟
- اسمعني أولا، وإن لم تصدقني أحرقني..

- كلي آذان صاغية..

كفَّ عن النهنهة كالصغار قبل أن يقول بتلهف:

- أهل هذا الفتى لا يعتنقون المسيحية كما يتظاهرون، بل هم من طائفة تقوم على تقديس الشيطان وعبادته!

- أتريدني أن اصدق مثل هذا الهراء يا شقي؟

هتف بإصرار مغتاظ:

- اقسم لك بكل عزيز أنهم كذلك، وإذا لم تصدق أنظر ما صنعوه بذراع الفتى اليسرى!

نهض الشيخ وشمَّر عن ساعد الفتى الأيسر، ولدهشته وجد كلمات عجيبة ونجمات خماسية تم رسمها على الذراع بواسطة الحرق، فقال معيدًا الكم إلى مكانه:

- هذا لا يفسر شيئا أيها الأفاق، أنت دفعت الفتى إلى تشويه ذراعه، ولأجل ذلك قام أهله بشد وثاقه كي لا تمكنه من إيذاء نفسه أكثر..

صرخ كالمجنون وبصره يجحظ:

- أتدري أن والدته الفاجرة التي تتظاهر بالتدين هي من صنع بذراعه ذلك؟ أولئك القوم يعبدون الشيطان يا شيخ! والد هذا الفتى باع روحه لسيدنا منذ زمن كي يحظى بكل الثروة والرفاهية والسلطة التي يتمتع بها الآن!

قال الشيخ (صالح) متهكما:

- وتقرأ ل(جوتة) أيضا؟ يا لك من وغد مثقف!

- أرجوك اسمعني.. باسم الشيطان يتحقق كل شر، وأهل هذا القصر يؤمنون بالشيطان وقدراته، وهم على استعداد لبذل أي شيء وكل شيء في سبيله.. الفتى مجرد قربان! أضحية كخروف العيد عندكم، الليلة



الفائتة جاؤوا جميعا هنا وقاموا بممارسة طقوس بلهاء من كتاب سحر مليء بالترهات! جميعهم كانوا هنا، حتى السكرتير!

كانوا يحملون معهم العديد من التمائم، وعندما غادروا أسقط السكرتير الأحمق تميمته عند الباب قبل خروجه، وهي الآن أسفل الخزانة الصغيرة هناك.. أنظر وتحقق بنفسك!

- سأفعل، والويل لك إذا ما كنت كاذبا..

سار إلى حيث الخزانة القريبة من الباب، وانحنى ليفتش أسفلها، فوجد شيئا ما.. تناوله بحرص، وإذ بها قلادة من ذهب خالص، تمثل نجمة خماسية مقلوبة لكي تبدو كرأس الكبش، وهو رمز شهير ومعروف لدى السحرة، فهو يرمز للشيطان (منديز) الذي كان من أقدم آلهة الفراعنة..

قلب الشيخ القلادة بين أصابعه مهموما، ومن ثم نظر إلى الفتى، فوجده يبتسم منتشيا!

سأله الشيخ بخشونة:

- إذا كانوا يقدسون الشيطان عليه لعنة الله، فلماذا يريدونني أن أخرجه من ولدهم؟

سارع الفتى بالإجابة:

- هذه الليلة هي ليلة القداس الأسود عندهم، وقد اختاروها تحديدا لأداء طقوس إخراج إلههم إلى الأرض، معتقدين أنه من أمرهم بهذا! إنه قداس معلوم بالنسبة للسحرة، ففيه قذاع لربكم بتراتيل كالتي في الكنائس، ومن ثم..

- سمعتُ بالقداس الأسود، فلا تسترسل عليك ألف لعنة..

- (أنطوان) ذاك هو كاهن القداس الأسود، أما زوجه وابنته وحماته وخادمات هذا المنزل الكبير فعبارة عن عاهرات، وظيفتهن مساعدة الكاهن الذي يرتدي السواد مرتديات اللون الأحمر..

أنظر من حولك، وستشاهد بعض النقوش والزخارف التي تمثل صلبانا مقلوبة لم تنتبه لها، وتلك الشموع السوداء مجهزة للقداس، بل إن الفتى ينام الآن على مذبح رخامي يمتلئ برموز شيطانية! إنه مخفي أسفل الفراش!

هذا الفتى هو Pentagram القداس، إنها الدائرة التي تحوي داخلها صورة تشريحية لإنسان، إن رمز Pentagram مرسوم كذلك أسفل هذه الأغطية والشراشف على سطح المذبح الرخامي الأسود!

شعر (صالح) بآلام القرحة تعاوده من جديد، فتماسك متسائلا باحتداد:

- طقوس قدسية الشيطان وتطهير الأتباع!
- أصبت أيها الشيخ! وهي تتحقق بتحقق هذه الشروط: أولا الطواف حول الضحية عكس عقارب الساعة..
- ثانيا التطهير! ويتم برش الماء الملوث على الأتباع..
- أصبت! بعدها يتعاون الكاهن وزوجته الكاهنة على قراءة تعاويذ استحضار الشيطان، ويشرب نخب حضوره كأسا من دماء الضحية، ثم يتوجه الجميع إلى دائرة تسمى دائرة القداسة قطرها حوالي ثماني أو تسع أقدام، هناك يتمنى الجميع تجسد الإله كي يبصروه..

عندئذ يقوم الكاهن بقرع جرس يحمله تسع مرات إيذانا بانتهاء القداس..

- ماذا لو لم يظهر الشيطان؟



- من المفترض حسب اعتقادهم أن يظهر متجسدا بصورة الفتى أو الضحية، فإن لم يظهر كان ذلك أكبر دليل على أن إلههم قد رفض الضحية التي قدموها له، وعندئذ..

- عندئذ ماذا؟

- عندئذ يذبحون الضحية استرضاء له، ثم يكررون العملية مع قربان جديد وقداس جديد في ليلة جديدة!

- الكفرة أبناء الكفرة!

- الم اقل لك بأنهم مجانين؟

- يا لك من ماكر لعين لا يخلو من دهاء وخبث، أنسيت أنك الذي دفعهم إلى فعل ذلك كله أيها المخلوق الدنيء؟

- أتضع اللوم كله علي يا شيخ؟ ماذا عنهم هم؟

- هم لهم خالق يتولى أمرهم ما دامت يد القانون لا تطالهم، أما عنك أنت فسأتولى بنفسي أمرك!

تبدى الرعب في محياه لما صاح:

- ماذا تعني؟!

- أعني بأني سأحرقك يا أحقر مخلوقات الله!

- إذن فقد حكمت على هذا الفتى بالذبح!

- هو هالك في كل الأحوال كما قلت أنت سابقا!

- دعني وسأطلعك على أسباب جلبهم لك إلى هنا..

وبرغم دقة الموقف وصعوبته تبسم الشيخ قائلا:

- أوتظنني لم أدرك السبب بعد؟

- معرفته تستحيل عليك..



– صه يا لعين، لقد استنتجته من الذي رويته لي، الحمقى لا يؤمنون بالقرآن وإعجاز كلماته، لكنهم يعتقدون أن مشايخ المسلمين يملكون القدرة على استحضار إلههم المزعوم داخل أجساد البشر! لكنهم لا يمتلكون القدرة على إخراجه منها، فهو القوي المتين في أنظارهم العمياء وداخل عقولهم الجوفاء، وبعد رحيلي سيحاولون بطقوسهم الغبية استحضار ملكهم، كل هذا مجرد ضمان لإنجاح عملية استخراجه إلى عالمنا عبر جسد هذا الفتى المسكين!

امتقع وجه الفتى، وبلسان متلعثم غمغم:

– ماذا ستفعل بعد أن تحرقني أيها الآدمي؟

– وحده الله يعلم، لكنني أؤمن بأنه لن يترك عبده الضعيف في ورطة كهذه..

أما عنك فأنا موقن الآن بعدم جدواك، بل إن ضررك لأعمق وأكبر، والخلاص منك فائدة ما بعدها فائدة!

ويصوت جهور ونبرة قوية تلا الشيخ سورة الصافات..

كانت رائحة الشياط تملأ أرجاء الحجرة الآن، وبصوت كالزلزلة صرخ الوحش من داخل الفتى..

ولما شارف على الهلاك أطلق أعتى صرخاته وبوحشية تامة:

– قد حكمت على هذا الفتى بالموت، كما أنك حكمت على نفسك وعلى صاحب عزيز عليك أيضا!

القيد بات مفتوحا الآن، بانتظار رقبة صاحبك التعس كي يطبق عليها!!

– القيد؟! عن أي قيد تتحدث يا لعين؟



- ستعلم.. في .. الوقت.. ال..

ثم تشنجت أطرافه قبل انتفاضة بدنه بعنف، والدخان لا يتوقف عن الخروج بكثافة..

وفي النهاية كان قد أسلم الروح..

تأمل (صالح) جثة الفتى، وبتأثر وأسى تمتم:

- قدر الله وما شاء فعل، قدر الله وما شاء فعل.. الحمد لله الذي أراحنا وأراحه من هذا العذاب..

استعاد عقله كلمات الكائن القذر، كانت حقا كلمات مبهمة وغريبة، لكنه لم يشعر أبدا بذرة ندم لإحراقه وغدا مثل ذلك الوغد..

فتح الباب بغتة، ودخل أفراد العائلة كلهم بلهفة وتوجس، على رأسهم (أنطوان) الذي هتف كالمصدوم:

- ما الذي جرى بحق الشيطان؟!

تأمله (صالح) مليا، فوجد حول عنقه سلسلة ذهبية، لكنه لم يتمكن من رؤية ما تحمله..

- "ما الذي جرى أيها الرجل؟ وما كل هذا الدخان؟"

وصرخت المرأة وهي تسعل:

- ولدي! ماذا فعلت به؟!

سارعوا لتفقد الفتى بلهفة، لكن صوت الشيخ (صالح) تناهى لمسامعهم:

- اطلبوا الرحمة والمغفرة لولدكم، فقد تمكن الشيطان منه..

- ولدي!!

وانكبت الأم على جثة الفتى وهي تنوح ومعها ابنتها وتلك المرأة الشمطاء، في حين وجّه الكهل سبابته اتجاه الشيخ هاتفا بحقد:

- اطلبوا الشرطة حالا لهذا القاتل!

لمح الشيخ وشما في رسغ الرجل، وعندما حاول تبينه جاء (أنطوان) بيك وخفض يد الكهل قائلا له بوجوم:

- هوّن عليك، الرجل حاول، لكن الشيطان كان أقوى منا كلنا كما ذكر!

ومدّ يده للشيخ قائلا له:

- شكرا لك، أتعابك تنالها من سكرتيري الذي بانتظارك خارجا..

صافحه الشيخ وهو يختلس النظر إلى رسغه، فوجده أخيرا.. وشم النجمة الخماسية المقلوبة كرأس الكبش Baphomet!

رفع بصره متأملا وجه الرجل الجامد، وبملامح باردة قال له:

- لا أريد مالك..

وألقى قبل مغادرته الحجرة بنظرة أخيرة على تلك العائلة، وهو لا يدري بما يشك أو يصدق..





الفصل الرابع عشر

حـلَّ موعـد أذان الفجر في الحي البسـيط، لكن مسـجده الوحيد بقى على صمته المثير للريبة، ففكر عباد الله القلائل ممن يستيقظون باكرا لأداء الفريضـة مـع الجماعة بالعـروج على مسـكن الإمام القريب من المسـجد لتفقد أحواله..

- "لماذا لم يؤذن الشيخ (صالح) لغاية الآن؟"

كذا تسـاءل الحاج (عبـد الرحمن) لما لقي صاحبيه أثناء سـيره البطيء اتجاه المسجد..

ويرد الحاج (حسن):

- لم أرَ مصابيح المسجد مضاءة..

فيقول (زكريا) الكهل صاحب دكان البقالة:

- اللهم اجعله خيرا..

هكذا سار ثلاثتهم ضاربين أخماسا في أسداس حول كنه السبب الذي أعاق الشيخ عن رفع أذان الفجر بعقيرته الجميلة..

- "لا بد وأنه سبب قوي.."



- "أحسبه المرض ولا قوة إلا بالله.."
- "كان الله بعون الرجل الطيب.."

قطعوا مسافة بسيطة تبادلوا خلالها حديثا رائقا للتخفيف من حدة قلقهم على شيخ المسجد..

- "سمعنا شجارك مع حرمك المصون، خيرا؟"

صاح (زكريا):

- اتقوا فتنة النساء!

ضحك الشيخ (عبد الرحمن) قائلا:

- حتى بأرذل العمر؟
- حتى ولو في القبر!

بلغوا الباب المعدني الذي التهمه الصدأ بأكمله، فدفعه أحدهم قبل تناوب الثلاثة بالدخول..

قال (زكريا) وهو يهرع صوب الحمام:

- لا تنتظراني..

كانا على علم بمشاكله مع التهاب المسالك البولية، فسارا صوب مسكن الشيخ، وقام الحاج (حسن) بطرق الباب الخشبي الذي تقشر طلاؤه..

رفع صوته لما قال معاودا الطرق بقوة أكبر:

- يا شيخ (صالح)..

جاوبه صمت مطبق، فرفع الشيخ (عبد الرحمن) عقيرته بالهتاف هو الآخر:

- يا شيخ (صالح) هل أنت بخير؟

ثم تساءل بقلق:

- أيكون قد خرج وأصابه مكروه ما منعه من العودة؟

- والعمل؟

- بعد أداء الفريضة نرسل فتية الحي للبحث عنه..

وافق الحاج (حسن) بإيماءة رأس بسيطة، ثم لحق بالحاج (عبد الرحمن) الذي سار باتجاه باب المسجد..

وما إن قام بفتحه حتى نفذت رائحة قاسية إلى فتحتي أنفه، رائحة ذكرته بقمامة (الشرغوفي) جزار الحي..

أتاهما صوت (زكريا) من الخلف يهتف مستبشعا:

- ما هذه الرائحة النتنة ؟ أعوذ بالله..

نظر الحاج (عبد الرحمن) إلى صاحبه الكهل الذي حضر مجددا وضوءه، ثم حدَّج بنظراته الحاج (حسن) المتوتر بشدة، قبل تسديد بصره واهتمامه كله للظلمة الراتعة بالداخل..

لسبب مجهول شعر بخوف حوَّل الشعر النابت في جسمه إلى مستعمرة من الأشواك المتصلبة، وأحسَّ بأنه يؤثر الانتظار إلى أن يحضر عدد كاف من المصلين على أن يلج هو وصاحبيه الآن، واستغرب ذلك بشدة، فدخوله بيت الله كان يمنحه دائما من الطمأنينة ما لا يمكن لبشر منحها إياه، لكنه الآن خائف بصورة لم يدرك لها سببا..

أتراها الرائحة؟ أم البرودة القارصة التي شعر بها لدى فتح الباب؟

لربما كان السبب خوفه على صديقه القديم والإمام الجليل، وبذلك حسم تردده وقام بالدخول، لكن بخطى حثيثة..

همس الحاج (حسن) وأسنانه تصطك:

– ابحث عن زر إنارة المكان بسرعة.. أرجوك!

– هأنذا أبحث..

كان في الواقع يتلمس الجدار بأصابع مرتعدة، الرائحة صارت أقوى مـم اضطـره لحبس أنفاسـه المجهدة، أما الحـاج (عبد الرحـمـن) فقد تقدم رغم خوفه الشديد والقشـعريرة التي انتابت بدنه.. ما الذي يحدث بحق الله؟ لِمَ كل هذا الهلع داخل بيت الطمأنينة؟

تسـمر بغتة، ورغم البرودة القارصة سال خط متعرج من العرق على جبينه المجعد..

لقد التصقت قدمه الحافية بسـائل يشـابه الغراء وإن كان أقل تماسـكا منه..

وفي تلك اللحظة، دبت الحياة في مصابيح الإنارة الداخلية للمسجد..





الفصل الخامس عشر

تكدست الصحون كالأبراج أمام المجلى المشبع بالشحوم وبقايا الطعام، فتصاعدت رائحة كريهة دفعت (سياف) إلى إشعال سيجارة كي يتنفس من خلالها أثناء العمل الشاق..

الراديو المعلق يصدح بعقائر قديمة قضى أصحابها، كانت تلك تسليته الوحيدة، والدندنة قد تنسيه أحيانا نتانة ما يقوم به، وكلما أحسَّ بانهيار في أعصابه نتيجة لفرك بقع في الأطباق لا تزول بسهولة رفع من عقيرته هو الآخر مصاحبا الغناء المتردد، وتاركا دخان السيجارة ينفذ إلى منخريه حتى يسعل، كي لا يستنشق مزيدا من العطن الذي ينظفه بجهد جهيد..

أنهى عمله في الثانية عشرة ليلا، فاغتسل، وخرج من الباب الخلفي مشعلا سيجارة مثنية الطرف.. ثم انسحب عندما أفعمت أنفه قمامة المطعم الملقاة على قارعة الطريق، بعد إطلاق القطط سراحها من أكياسها السود بمخالب ملوثة بدم أحشاء الدجاج وبقايا الأسماك..

تمشى ببطء راكلا كل ما اعترضَ طريقه.. علبة بيرة فارغة، حجر.. قطعة بلاستيك مبهمة الشكل.. وفكر مجددا - بتحسر - في جناحه السحري داخل فندق «الحوت الأزرق» الخيالي..



بلـغ مدخـل غرفتـه أخيرا، وتذكـر بنفس ضائقـة أن الغـد هو موعد مطالبة (كيرياح) اللعين بالأجرة..

دخـل مفكـرا بإعداد وجبة بلا مذاق يسـكن بها بعـض أنات معدته، لكنه سرعان ما تنازل عن الفكرة ما إن نزع قميصه واستلقى على سريره، لدرجة انه قرر النوم بالحذاء..

صـوت طرقات قاسـية تتلاحق على بابه.. الطرقات مسـتمرة لا تهدأ ولا تكن!

أفـاق (سـياف) بوجـه يتقاطـر منه العـرق بكثافـة كأنه رأى كابوسـا مفزعا، وارتعشت أوصاله رغم الرطوبة الخانقة التي شعر بها وهو يرمق شاشة ساعته الرقمية، فاكتشف أنه لم يغفُ سوى بضع دقائق..

شـعر أيضـا بالضيـق والكراهيـة اتجاه ذاك الـذي يحاول خلـع الباب المعدني الصدئ من مكانه..

- «من المزعج الذي يطرق الباب؟»

- «افتح، شرطة!»

- "أوف.."

نهض من على سريره، وسارع بارتداء قميص فوق سرواله البالي ممزق الركب..

- "بسرعة.."

- "حاضر، حاضر.."

سار بخطى حثيثة وهو يتثاءب، فما إن بلغ الباب حتى فتحه قائلا:

اللهم اجعله خيرا!



وأمامـه، وقف صنـم يرتدي ثيـاب الشرطة، كان سـاخطا على تأخر (سياف) الذي سارع بسؤاله:

- ما الحكاية؟

ردَّ الشرطي الصنم بغلظة جمة:

- سيادة المقدم يريدك في التو واللحظة..

أخرج (سياف) من جيبه سيجارة دسَّها في مقدمة فمه، وأثناء إشعالها بعود ثقاب تساءل بعبوس:

- بصفتي ضحية؟

- بصفتك صديق لضحية! إنه إمام المسجد..

تلاشى العبوس من على وجهه، وهو يعجِّل بالسؤال مختطفا السيجارة من بين شفتيه:

- شيخ (صالح).. هل أصابه مكروه؟

- سيادة المقدم بانتظارك..

- هلم بنا حالا!

اقتاده الشرطي عبر طرقات يألفها في الحي، كانا في طريقهما للمسجد، حيث رأى جمهرة هائلة كأن ثمة مظاهرة ما، فتوجس خيفة من الأمر وهو يسأل الشرطي:

- ما الذي حدث بحق الله؟

- "تمام سيدي.."

وبوقفة صارمة أدى الشرطي الصنم التحية العسكرية للمقدم الذي يكبر (سياف) بسنة، والذي اسـتقبله بحفاوة مناقضة تماما للفتور الذي جلبه الشرطي به..



- "أيقظك بضراوة كالمعتاد، أليس كذلك؟"
- "إنه الحب، ما الأمر؟"
- "جريمة.."

قالها مطأطئا رأسه، فأدرك (سياف) بأن الأسوأ قد وقع..

سار مستشعرا صعوبة في التنفس، لمحته الأعين وهو يتقدم برفقة المقدم، فتصاعد همس بين الحشود..

دخلا ساحة المسجد وسط هرج ومرج رجال الشرطة، وتوقفا أمام الباب القديم والمقدم يقول بأسف:

- ما ستراه قد يثير صدمتك..
- أرني..

بقسوة قال ذلك، فقد كان الشيخ (صالح) أخا ووالدا وصديقا متفهما.. وأقسم بأنه - ومهما كان الذي سيراه بالداخل - سينتقم لروح الرجل..

قال المقدم وهو يفرك جبهته ممتعضا:

- إنه الهول بعينه!

لكن (سياف) لم يمهله، بل اقتحم المكان اقتحاما..

تسمر في مكانه، شعر أن كيانه قد استحال رخاما، بل جليدا!

وأغمض بصره قائلا بصوت أليم:

- رحماك يا إلهي!

ففي بقعة واسعة من أمام المنبر، انتشر اللون الأحمر المروع، تحول البساط الأخضر لحلبة من الدماء، حتى الجدران حليبية اللون لم تسلم من رشقات فرشاة الدم الجنونية.. كان الهول يعم الأرجاء..



ليست مجرد رشقات، كانت هنالك كلمات مدونة بخط همجي كبير على جدار المنبر من الجهة اليمنى:

باسم الروح الجهنمية للطاووس !!!

قرأها المقدم بعقيرة جهورية ناظرا ل(سياف) كي يقرأ انفعالاته أيضا، وأضاف بنبرة حادة متأملا الفوضى الدموية:

- دعني أؤكد لك بأن ابن ال..

- نحن داخل بيت الله..

- أستغفر الله العظيم!

ووسط بساط من الدم استقرت جثة الشيخ الجليل، كان (سياف) قد تعرفها فورا بواسطة المسبحة الأبسيديانية في اليد اليمنى..

- "لا بد وأنه كان انتقاما!"

لم ينظر (سياف) للوراء، لكنه ميَّزَ على الفور نبرة صوت (عازم راضي) زميله اللدود والسابق..

أخرج الأخير آلة التصوير خاصته، فتراجع المقدم على مضض كي يفسح للمندوب المجال..

ردَّ (سياف) قائلا بجفاف ونظراته مصوبة اتجاه الجدار:

- الكتابة التي على الجدار تقول عكس ذلك..

قال المقدم:

- كأنما دونها زرادشتي أو فريسي..

وأضاف (سياف) مهموما:

- أو يزيدي..

- لا أعرف يزيديا هنا..

- إنهم يفضلون ذلك أيضا!

وتوقف هنيهة مغطيا بصره بكفه، فوضع المقدم يده برفق على كتفه..

- "هل أنت بخير؟"

تنفس (سياف) بعمق قبيل إجابته:

- لماذا الرجل الطيب بالذات؟

دنـا (عازم) حتى توقف بقربه، قائـلا وهو لا يزال يلتقط الصورة تلو الأخرى:

- تخميني الأول أنها جريمة جنون لا أكثر..

- أنظـر إلى هـذا المهرجـان، كأن طائفـة من عبـدة الشـياطين أقامت احتفالا هنا!

وامتـدت يـده بغتة لتقبـض على ياقة زميله السـابق، وسـمعه الأخير يهمس بقساوة مفرطة:

- عندما أعلم هوية القاتل فقط!

ولم يكمل، أفلت ياقته وسارع بالخروج من المسجد..

في الخـارج وجـد الحشـود تنظر إليه، ميّـز من بينهم الشـقي (أخطل) الذي رفع عقيرته بالصياح ما إن لمحه:

- سـيادة المندوب الأسـبق! ما الذي سـتصنعه إذن؟ تستحضر روح الفقيد كي تسأله عن قاتله؟ أم تراهم يشتبهون بك؟

انقـض (سـياف) عليـه، فبلغـه رغـم كثرة القـوم، وتمكن مـن بطحه أرضـا.. تراجـع النـاس بذعـر لإدراكهم مـدى خطورته حـين يغضب، فوجد (أخطل) الأزعر قبضة (سياف) حرة فيما تصنعه..



هـوت على وجهـه مرات عدة، فالتـوى أنفه وتحطمت له سِـنتان قبل غـرق ملامحـه بالـدم، ولم ينقـذ الأزعر من القبضـة التي لا ترحم سـوى تدخل المقدم الذي لحق ب(سياف) مسرعا كي يمنعه من قتل الرجل..

- "كفى يا (سياف)! قد نال جزاءه.."

توقـف بطريقـة مباغتة، فنهض من فوق (أخطـل) وقد بدت أعصابه مستقرة نوعـا، في حـين أشـار المقـدم إلى أحد رجالـه كي يأخذ الشـقي للطبيب..

نظر (سـياف) لقبضته فوجدها غارقة بالدماء، انتابه شرود عميق، ثم سار قاصدا مسكنه وهو لا يكاد يبصر أمامه..

اقترب الشرطي الصنم من المقدم، وقال له محتدا:

- ينبغي علينا إيقافه وحبسه لقاء ما صنع..

- إنه مصدوم، فقد صديقا غاليا عليه.. ألا يمكنك ملاحظة ذلك؟

بلغهما صوت (عازم راضي) متسائلا بتهكم:

- أين المشتبه به؟ أرحل بهذه السرعة؟

أجاب المقدم باستغراب:

- مشتبه به؟

- لا تدع العواطف تتملكك بشأنه يا سيادة المقدم!

احتفـظ المقـدم بازدرائـه للمنـدوب، وانتظـر حتـى مغادرته سـاحة الجريمـة، ثـم سـار مبتعدا عـن السرينة والرجـال والحشـد الفضولي كي يلحق ب(سياف)..

بلـغ باب غرفته داخل البناية أخيرا، فطرقه طرقا خفيفا، وطفق ينتظر حتى فتح له (سياف) الباب، فتأمله مليا قبل أن يقول له معاتبا:

- الرجل وجهه تحطم!

بقي (سياف) على صمته، فتساءل المقدم ويداه خلف ظهره:

- هل لي بكوب شاي؟ أم تفضل البقاء وحدك؟

- الدار دارك يا (فايز)..

دلف المقدم للداخل، وجلس على سرير (سياف) المتهالك، ثم ثنى ظهره ومال بوجهه لينظر أسفل السرير قائلا بأسف:

- حياة نتنة!

سأله (سياف):

- كم ملعقة سكر؟

- ولا ملعقة، ارتفعت نسبة السكر عندي..

- لمحتك ذات مرة في محل للحلويات، كنت تلتهم الكنافة كالمحروم!

- لا تطلع زوجتي على الأمر إذن.. قل لي.. لِمَ لا تتزوج؟

- حالي مزر..

- وجاء شيخ (صالح) فأصلح من حالك المزري.. أنت لم تعاود الشرب، أليس كذلك؟

- والشيخ (صالح) قد رحل!

- ماذا تعني؟

ناوله كوب الشاي قائلا:

- لا شيء..

- أحقا لا شيء؟

- لا شيء، مجرد كلمات ولدها الغضب..

- أرجو هذا، فأنت لن تحاول خذلان الرجل الطيب..

- تقصد روحه..



- الأعظم منه ومن جميع الخلائق يراك، فما الفارق؟
- صرتَ متدينا على ما يبدو.. سيجارة؟

تناول (فايز) السيجارة من يد (سياف)، الذي سأله وهو يشعلها له بعود ثقاب:

- أتذكر مأساتي مع الكوابيس؟ تلك التي سردتها عليك قبلا عن رؤيتي لها كل ليلة مذ..
- مذ عملت كمندوب لصالح المدعو (جاد الجرجوف).. أذكر هذا.. لكنني أذكر أيضا كيف عاد الشيخ (صالح) - رحمه الله- وعالجك من تلك الكوابيس المروعة كما ذكرت لي..
- وذلك ما يثير ذهولي، للمرة الأولى تعاودني تلك الكوابيس المتعلقة بتلك الأحداث الدامية، ومتى؟ ليلة مقتل الشيخ الصالح! ألا تجد هذا غريبا؟
- تريد القول أنه برحيله عاودتك تلك الكوابيس تلقائيا؟ هذا حديث لا يقبله منطق يا صاحبي..
- ذلك ما حصل بالضبط، أتظنني أخرف؟
- سبحان الله! أمور كهذه تخيفني، بينما أنت غارق بها حتى النخاع!
- إنها حياتي..
- بل أنت الذي ارتضيت هذا الشقاء لنفسك، كبرت ولا زلت تنام لوحدك بسبب الهراء الذي تعايشه..
- هذا ليس صحيحا!
- هل تمزح؟ لماذا لم تتزوج لغاية الآن؟ لِمَ الانطوائية السلبية؟
- لا أريد شريكة لي في هذه الحياة..
- عادة يقولون: لم أجد شريكة حياتي بعد!



- ولماذا أنت مهتم بالأمر هكذا؟
- أريد الشعور بأن صديقي إنسان طبيعي كسائر البشر..
- يبدو بأن صداقتي تكلفك غاليا..
- لا تخف، إنني أدفع ضريبتها أمام زوجتي فحسب، فهي تكرهك!
- إذن اعتقني لوجه الله يا أخي!
- لن أفعل..
- إذن فأنت تستحق ما يجري لك من وراء هذه الصداقة المنحوسة!
- وهو كذلك..
- أيها الأحمق، لَمِ لا ترحل وتريحني؟
- حاذر! فقد أضطر للقبض عليك لمحاولتك طردي!
- ليتك تفعل، ليتك تفعل..

ثم تبسم (سياف) بغتة قائلا باستهزاء صريح:

- ولكن كيف علمت عن طوائف الزرادشتية والفريسية؟
- كيف؟
- عندما كنا في المسجد نتمعن في أمر الكتابة المبهمة..
- اطلاع..
- منذ متى؟
- منذ أن أصبحت شرطيا، مذ تعرفت عليك، مذ تزوجت يا أخي!
- أحسنت!

أنهى (فايز) سيجارته وشايه، فدسَّ هذه داخل بقايا تلك قائلا:

- ما الذي يدور في خلدك الآن؟
- أمور..
- من القاتل أو القتلة، أليس كذلك؟

- بلى..
- كنت تمزح بخصوص الانتقام..
- بالتأكيد، كانت مجرد..
- كلمات وليدة الغضب، لكن اطمئن، سنجد القاتل، يجب أن نجده..
- (فايز).. شكرا لقدومك..
- تتحدث كموظفي الفنادق! إنك صديقي الوحيد..
- الوحيد؟
- لدي ابنتي الصغيرة التي أعتز بصداقتها كذلك، ولا أظنك تمانع!
- رغم أنها منافسة خطرة!
تبسم، ونهض من على السرير ضاربا إحدى ركبتيه براحة يده:
- ستكون ليلة شاقة..
- وما حجة زيارتك لي أمامهم؟
- استجواب طبعا!
بدت بسمة (سياف) شاحبة وهو يسمع إجابته، وقام بإطفاء عقب السيجارة في كفه اليمنى المفتوحة بشرود كئيب..





الفصل السادس عشر

- «سيدي؟»

فتح (سياف) جفنيه بصعوبة، ليجد نفسه جالسا على مقعد داخل ملهى ليلي رخيص كان من أهم زبائنه فيما مضى..

- «ماذا؟»

ونظر لمحدثه مهموما، فوجدها ساقية جديدة تتأمله بقلق..

ردَّت عليه ببسمة مضطربة وهي لا تكف عن مضغ علكتها رغم ذلك:

- معذرة، لكنك قدمت قبل دقائق ثم بدوت كالنائم!

فرك عينيه قائلا:

- أنا بخير..

- هل أحضر لك شيئا؟ ما قولك في مشروب ساخن؟

- مياه غازية..

- كما تشاء..

وقبل أن ترحل استوقفها متسائلا بغم:

- أتقدمون.. مشروبات كحولية هنا؟

تمتمت باسمة كأنها سمعت نكتة:

- ماذا تظن؟

- بالطبع! "ويسكي"، مع زيادة في الثلج لو سمحتِ..

- كما تشاء..

ورحلت كي تجلب له طلبه، فأخرج من جيبه منديلا جفف به عرق جبهته..

فجأة، نهض أحد السكارى رافعا كأسه عاليا وهو يهتف مترنحا:

- في صحة المندوبين الدهاة! الذين غسلوا دماغ الحكومة الواعية!

تضاحكت النسوة اللواتي يجالسن زبائن الملهى، في حين رفع بعض الزبائن كؤوسهم باسمين مؤيدين..

- "خذوا الحكمة من أفواه السكارى!"

سمع (سياف) أحد الزبائن يقولها، لم يتبين شخصيته، لكنه أيَّدَه في أعماقه..

قرر الهرب من المكان البغيض، فنظر من خلال النافذة المعتمة التي على يساره.. لمح الغيوم محتشدة أسفل الطائرة التي صعد على متنها بمخيلته، ومن بين ثغرات واسعة فيما بينها استطاع إبصار لمحات من الأرض بخضرتها ومحيطاتها، فكأنما الغيوم سقف امتلأ بالتشققات الكاشفة عن الأرض!

- "تفضل.."

ونظر للكوب مباشرة، سائل ذهبي قابع داخل الزجاج يغري معاقره بتناوله، وفي قاع السائل تسبح مكعبات ثلج صغيرة كالأسماك الفضية..



ثم نظر إلى المضيفة التي ارتدت ثوبا سماويا أنيقا يكشف عن ساقيها العاجيتين واعتنت بتفاصيل ماكياجها، بعدما كانت ب "الجينز" وتلطخ وجهها بمساحيق تجميل شنيعة، لم تعد تمضغ علكة، فقال لها ببلاهة حالمة:

- شكرا!

نظرت له برقة، أما في الواقع فتأملته كما لو كانت تتأمل مجنونا، ثم رحلت تاركة إياه يضع الكوب على المنضدة التي تفتح وتغلق أمامه! كل مقاعد الطائرات مزودة بها، ثم عاود النظر من خلال النافذة البيضاوية وإصبعيه أسفل ذقنه.. حركه شوق جهنمي إلى ما كان يعاقره يوما، سائل كهذا السائل الخبيث كفيل بإطفاء لهيب توتره وأساه..

نظر للكوب بشوق وتلهف، وبحذر مدَّ أنامله صوبه..

وهنا تردد صوت الشيخ (صالح) - رحمه الله- في عقله الموشك على الخطيئة:

- "ماذا لو هوت الطائرة؟"

نظر للمقعد الذي بجواره في الطائرة، فوجد الشيخ القتيل جالسا ومسحة حزن تعلو وجهه! فتجمدت أنامله قبل بلوغها زجاج الكوب، ثم حوَّلها لقبضة رفعها صوب ذقنه التي أراحها عليها..

كان قد أغلق رواية ل(سومرست موم) بعد قراءة فصل جديد منها على مسامع الشيخ (صالح)! الذي أقعده مرضه في سريره بداخل حجرته القريبة من مسجد الحي، منذ توعكه و(سياف) يزوره كي يقرأ له بسبب ضعف بصره كذلك..



امتلك الشـيخ مكتبة ثرية، ذكر ذات مرة بأن الهدف الأسمى بعد نشر الدين الإسلامي هو جعل الناس يتنبهون للثروة التي تكاد تضيع من بين أياديهم بعدم المطالعة والاستفادة من الكتب..

قال (سياف) للرجل الطيب باسما:

- للمرة الأولى في حياتي أقابل إمام مسـجد شـيخ يطالع (سومرست موم) بدلا من "الترغيب والترهيب"!

- ومـن قـال بـأني لم أطالـع "الترغيـب والترهيـب"؟ القـراءة يا بني مقدسـة، والكتاب خير أنيس وجليس في الزمان كما قال الشـاعر، ما دام واضعه فنان أجاد وتعمق في صنعه، عربيا كان أم غربيا..

- هل بالإمكان اعتبار ما ذكرته فتوى؟

- يا بني لا شأن لي بإصدار الفتاوي، إنه رأي متواضع!

- يا ليتك تزوجت وأنجبت الذرية الصالحة يا شيخ..

- أبنائي هم كتبي وعلمي، والله أعلم مني ومنك بشـكل الذرية التي كانت ستأتي لو أني تزوجت!

- متى تشفى وتعاود رفع الأذان بصوتك الجميل؟

- إن شـاء الله.. إنها الشيخوخة يا بني، سن أليمة أكثر من سن اليأس والمراهقة حتى! لقد قال (مكسـيم جوركي): "الشـيخوخة دائما محافظة، وهذه هي تعاستها الأساسية.."

وقالت (غادة السـمان): "الشيخوخة هي الجنازة الوحيدة التي يمشي فيها الفقيد على قدميه!"

كانوا يسـمونني فيما مضى دائـرة المعـارف المتنقلة، أينـما حللت أفيد الناس بآرائي بإذن الله.. أما الآن فأنا كالمشلول، كشبح يمرح ما بين الحياة والموت، وعندما أموت..



- كفَّ أرجوك..

- يا بني، حين يقترب ميعاد استرداد صاحب الأمانة لأمانته يشعر الواحد منا بذلك!

- لا تقل هذا يا شيخ..

- إنها الحقيقة، والأفضل تركها مجردة على أن نلطخها بزينة مزيفة جوفاء!

رأى (سياف) من خلال نافذة طائرته الوهمية غيوما داكنة لا تبشر بخير، فأدرك أن عاصفة هوجاء تنذر بالهبوب..

كانت المضيفة قد رفعت الكأس من أمامه بطلب منه، تبسم لأن إرادته انتصرت أخيرا، وإن لم يكن بتلك السعادة..

شعر بأسى عميق عندما تذكر أن الطريق للخلاص لا زالت طويلة وشاقة، تذكر حلقات العلم في المسجد، ودروس الشيخ (صالح) التي مسَّت شغاف قلبه وثنايا عقله..

نظر لمقعد الطائرة بجواره، فوجد شيخه يتلاشى ببطء.. أنصت إلى صوته وهو يردد داخل ذهنه:

"الآخرة لأبقى، حيث لا هموم ولا أسى، تب يا بني فإن الله يتقبل زلاتك وزلات غيرك.."

ونظير الأمل الذي وهبه للأشقياء من أمثاله، يقتل الرجل الطيب بتلك الصورة الهمجية المروعة على يدي عابد شيطان نجس!

بعينين مغيبتين من أثر الخيال المحموم أبصر رجلا يدفع بما تبقى من كأسه داخل جوفه، ثم نهض الرجل محدِّجا (سياف) بنظرة عابرة، كان بوهيمي الشعر ذا ذقن مدببة كالرسامين..

خرج الرجل مندفعا، فأفاق (سياف) من خيالاته مندفعا وراءه وهو يلتقط من أسفل المقعد الذي كان الرجل جالسا عليه حقيبة رمادية صغيرة، وبصوت مرتفع قليلا هتف:

- يا سيد! حقيبتك يا..

وفي الخارج وجد عددًا من السكارى يفترشون الناصية، ولمح كمية من القطط المتشردة تتشاجر على أحشاء دجاجة متعفنة في مكب القمامة..

- "يا سيد!"

لكنه اختفى كالشبح..





الفصل السابع عشر

مع اهتزاز الحافلة التي استقلها على الطريق السريع والطويل، شعر برأسه يهتز هو الآخر..

أمامه على بعد ثلاثة مقاعد امرأة جالسة على الطرف الآخر وتنظر من خلال نافذتها بشرود، متحجبة بالسواد، وتجلس وحيدة.. ركز على شفتيها عندما ولجت الحافلة فوجدهما بلون ورد الجهنمي، ولمح عينان كالغيوم الداكنة المحتشدة بالخارج، قبل تهدل خصلة شعر حنائية طويلة وناعمة كالحرير على عينها اليسرى..

شعر بذهول عميق لجمالها، كان هذا قبل خفضه بصره، مما أبقى صورة مشوشة غير واضحة تماما لملامحها عالقة في ذهنه..

ألح عليه بصره لاختلاس النظر مجددا عله يظفر برؤية شيء، فهمس غاضا الطرف:

- لا، نحن عبيد الله لا الشيطان..

كأن لم يكن يحادث النساء سابقا ويتودد إليهن في كثير من الأحيان! لكن لا، هذه الأنثى الساحرة مختلفة لأنها عفيفة..



إلا أن صورتها الداخلية والمشوشة تقوضت، فكأنما الشيطان يحاول دفعه دفعا إلى إلقاء مزيد من النظرات اتجاهها ليمتع ناظريه بجمالها، ولإعادة رسم الصورة التي كانت في ذهنه بشكل أوضح..

هكذا واصل الشيطان رسم خططه للإيقاع به، حتى همس هو له من بين أسنانه التي ضغطها ببعض:

- اذلف يا شيطان!

ومن جديد نظر لها! نصر جديد لتلميذ (عزازيل) النبيه، لمح انعكاس وجهها على الزجاج الذي تسند جبهتها إليه، فتلا حزنا في ملامحه الآسرة، حزنا عميقا أثار حزنه هو الآخر..

- «اسألها عما يحزنها!»

- «هيه.. من تظنني؟ عابدك (برصيصا)؟»

لكنه - ولثالث مرة - نظر، فقد كان ضعيفا كل الضعف أمام حزن الأنثى، ربما لأنهن يجدن التعبير عنه بملامحهن الدقيقة.. شعر بوهن بين جدران قلبه حين لمح دمعة شفافة تنساب على خدها الأيسر، فتمنى لو أنها توافق على فتح مكنونات قلبها له، أحسَّ برغبة في احتوائها والهمس لأذنها ببضع كلمات، وتمنى أن تذكر اسمه بلوعة وتردد على مسمعه كم هي بحاجة إليه..

أخذ الشيطان يقدم له خدمة من نوع جديد، فبمكر ودهاء جعله كذلك ينصت إلى صوت ضحكها الخلاب، ثم لهمساتها المدوخة في أذنه، ومن ثم ابتدأ يجردها من ثيابها ببطء مثير!

- "يا إلهي خذه إلى سعيرك!"

لاحظ كذلك أن الصداع الذي اجتاح رأسه قبل قليل قد هدأ، لكنه تمنى عودته من جديد كي يغزو تلك الصور الدنسة في رأسه، لم يحتمل



تلك الإساءة التي ابتكرها شيطانه الأعور القاطن بداخله لتلك المرأة المحجبة والصامتة بحزن..

أخرج من جيبه منديلا مطويا بعناية، فرَدَه على كفه، وإذ بداخله مسبحة مصنوعة من حجر "الأبسيديان" الأرميني الأسود الممتزج باللون البني، ما تبقى من الشيخ الطيب كي يذكره على الدوام..

ولكي يريها لقاتله عندما يلقاه يوما قبل تنفيذه القصاص العادل!

كانت الفكرة هائئة لدرجة أنه طوى المنديل وأعاده لجيبه، ثم أسبل جفنيه ونام..

الظلام حالك، بل أحلك من قلب يهودي، مريع بكل ما تحمله الكلمة من معاني، وكأنه جوف كائن أسطوري يقطن أعماق المحيط المظلم.. شعر به يحاول تنويمه مغناطيسيا، سمعه يخاطبه بنبرة عميقة: "تقدم خطوة واحدة، تقدم إذا ما كنت تجروء!"..

ومع ذلك ظلَّ يركض حتى بلغ الشارع.. إن رؤية المجنون تثير ذعره أكثر من رؤية الشيطان شخصيا! حين يتلوى أو يلوِّح بأطرافه الأربعة بطريقة خرقاء، أو حين يخرج الزبد من فمه ككلب مسعور، ويمزق ثيابه وقد انتابه هيجان كالإعصار!

كل الذين قابلهم مجانين بطريقة أو بأخرى، وهو لن يبقى لمعرفة سر جنونهم كي لا ينتهي به المطاف بأن يغدو منهم..

سمع فجأة عواء الذئاب قريبا منه فتوقف، نظر إلى منتهى بصره فلم يتمكن من رصد شيء..

كان ذلك كافيا ليعود من حيث أتى، فقد تكفل المنطق بالأمر، إما المبيت في أرض الكوابيس هذه، أو داخل معدة ذئب جائع!

ثمة حل، الاختباء في أحد المنازل المهجورة - وما أكثرها هناك - فهو لم ينس بعد أمر ذلك الشخص - أو الشيء - الذي يطارده، صحيح أنه حلٌ كريه لأنه يجعله الفأر في لعبة المطاردة هذه، لكن لا مناص..

إن الحياة في عالمَي الواقع والمنطق لفترة زمنية طويلة يولد إحساسا بالتنبلة.. الشعور بالواقع هو شعور المرء بلسع عود الثقاب المشتعل إذا ما لامس إبهامه، وبأنه لن يطير إذا ما قفز، أو يتنفس إذا ما غاص في أعماق البحر..

لكن هنا! أين المنطق والواقع في هذا العالم المظلم البارد؟ حتى الهواء الذي يتنفسه أشعره بأنه يلتقط أنفاس كائن جهنمي حي!

جنون جماعي كأنه الوباء، والشر هنا سيد الموقف، ولون التعاسة والشقاء سيطر على كافة الأرجاء..

سيذهب الآن إلى منزل جيد التحصين، وينام ملء جفنيه بعد الاستعاذة والمعوذات حتى مطلع الفجر..

عندها شياطين الدنيا بأسرها لن تجرؤ على إيذائه..

لم يطل بحثه، إذ وجد منزلا لا بأس به، في الواقع عبارة «لا بأس به» لم تكن واردة حتى، فهو مجرد منزل كغيره من المنازل، لا يميزه شيء باستثناء كرسي هزاز أمام واجهته تؤرجحه الرياح ببطء مخيف!

جميع أبوابه موصدة بإحكام، لكن ثمة نافذة مفتوحة بإمكانه بلوغها بقليل من الجهد، وإذا تماسكت ماسورة المياه القديمة التي بجوار النافذة واحتملت وزنه..

ولم يكذب خبرا، شرع بالتسلق حتى بلغ النافذة، فتعلق بحافتها وتسلل للداخل..

لكن ماذا لو لم يكن مهجورا؟ عندها تقع الطامة الكبرى، فعقله غير معد لمفاجأة جديدة غير محسوبة!



هكذا قرر تفتيش المكان بدقة، بحذر، لكن كان من الواضح أن سكان هـذا المنزل قد هجـروه هم أيضا.. كل شيء هنا يدل عـلى أن العائلة التي قطنـت هنا رحلت منذ مدة ليسـت بالطويلة، فالأثـاث في مكانه ونظيف تماما، لا أثر لذرة غبار حتى!

لا كهربـاء لكن يوجد مـاء، ثمة كذلك طعام وشراب في الثلاجة، ولم يكن متعفنا كما توقع..

صور للعائلة.. واحدة للشقيق الصغير، والثانية للأب والأم، والثالثة لفتاة شقراء بارعة الجمال رغم نظراتها الباردة التي لم يرتح لها في الصورة..

ذهـب إلى المغسـلة في الحـمام ليبلـل وجهـه المرهـق بالماء كـي لا ينام، لحسـن حظه وجـد المرآة محطمة، فهو يكره المرايـا كثيرا كمصاصي الدماء في الحكايات الخرافية، لو أن ثمة رهاب مرايا فهو حتما أول المصابين به!

كما أنه توجد دماء طازجة على البلاط الأبيض المصقول!

غسـل وجهه مـن صنبور الميـاه الباردة، ثم مسـحه بمنشـفة وجدها، وخرج ليجلـس على الأريكة المريحة في الصالـون.. ففوجئ بوجودها في الركن.. الستارة الخمرية اللعينة!

تأمـل الخطوط المحفورة على كفيه للتيقن من وجودها هناك، يقال أن راحة اليد اليمنى تحمل الرقم ١٨ واليسرى الرقم ٨١ ، لكنه لم يرَ سـوى الرقم ١٢ أو خيل له رؤيته!

أصغـى للريـاح المتلاعبة بـكل شيء غير ثابت في الخـارج، فتدحرجه إذا كان برميلا، أو تبعثره إذا ما كان قمامة، أو توقعه ما إذا كان عامودا..

بقيـت خواطره سـوداء مؤرقـة، تدفقت كشـلال ثائر الميـاه في أعماق مخيلتـه حتى شـعر أنه يغرق بالنعاسَ أخيرا.. رفـض النوم مفضلا مراقبة سـتارة كوابيسـه الرهيبـة ذات اللون الخمـري، ثم نهض مقـررا إزاحتها ليرى ما تخبئه..



لكن طرقات مفاجئة على باب المنزل جعلته يتسمر وقلبه يكاد ينتزع من مكانه..

نظر للخلف وهو يلهث ويشتم في سره المعتوه الذي يطرق بذلك الصخب المثير للفزع، ثم خفَّ باتجاه الباب ليجده بلا عين سحرية، فهمس قائلا بتوتر:

- من هناك؟

لا أحد يرد مع الأسف..

- «قلت من هناك؟»

ظن بادئ الأمر بأن الطارق قد رحل، لكنه سمع صوتا قريبا للهمس يجيب:

- افتح..

غزا الخوف ملامحه للمرة الأولى، لم يكن الصوت مألوفا، كان صوتا فتيا لمراهق..

- «من أنت؟»

ران صمت مريب المكان للحظة..

- «افتح!»

لامست أنامله المقبض، لكنه توقف هنيهة لمح خلالها فرجة أسفل الباب، فتجاهل النداء المتردد والطرقات المحتدة، وهو يميل بجسمه ووجهه كي ينظر من تلك الفرجة الضيقة..

- «أتريد لي الهلاك من البرد القارص؟»

كان الصوت رجوليا غاضبا هذه المرة، لكنه تجاهل ذلك وهو يلصق رأسه بالأرض.. وينظر!



الفصل الثامن عشر

كان الرسام المزعوم يقطن ألعن بقعة يمكن تصورها في المدينة..

أكوام من القمامة قابعة على قارعة الطريق.. العديد من المشردين يفترشون الأرصفة للنوم.. ثمة أطفال يبحثون عما يؤكل أو يباع بين النفايات الكثيرة ذات الروائح الكريهة، بينما انتشر صبيان وفتيات في الأرجاء عارضين أجسادهم للبيع بأبخس الأثمان..

تجاوز (سياف) كل هذا البؤس البشري حاملا حقيبة رمادية صغيرة، ولج البناية وأخذ يصعد درجات السلالم القديمة..

توقف أمام باب شقة الرسام محاولا التقاط أنفاسه، ثم طرق الباب بعشوائية..

- «ارحل عليك اللعنة!»

- «(ساردوان)؟»

مضت برهة قبل انفتاح الباب على مهل وظهور شبح رجل يماثله عمرا، كما لو كان الاسم الذي تم نطقه عبارة: "افتح يا سمسم"!

- "ومن أنت بحق الشيطان؟"



- "قطعت رحلة عصيبة بالحافلة كي أرد لك هذه.."
- "وما هذه؟"
- "يا سبحان الله! حقيبتك يا أفندي، هل أنت مسطول؟"
- "فعلا! إنها حقيبتي! أين وجدتها؟"
- "في البار حيث كنت أنت جالسا.. لم أجد بطاقة هوية، لكنني وجدت فيها العديد من الصور والقصاصات من الجرائد والمجلات، وعلى إحداها وجدت عنوانك هذا مدونا بخط أحمر عريض.."

ضحك ضحكة قوية داعيا (سياف) للدخول بحماسة هذه المرة وهو يجذبه من ذراعه..

- "لا داع، رددت الأمانة وأرحت ضميري.."
- "إذن فقد حان دوري لإراحة ضميري! اعتذار وكوب شاي بالنعناع.. ادخل وكفَّ عن التمنع كصبية خجول!"

دخل (سياف) شاعرا أنه مرغم، كان يرغب في الرحيل بأسرع وقت ممكن عن هذا الجانب الحالك من المدينة..

يا لهذه الشقة! هي حقا لفنان مخبول.. هنالك العديد من اللافتات على أبواب الغرف، "المطبخ"، "الحمام"، "غرفة المعيشة"، "إلى الصالون"، "نحو غرفة النوم".. ثمة لافتة دوِّن عليها "غرفة المطالعة"، استطاع أن يرى بداخلها مكتبة هائلة الحجم..

أطلَّ بوجهه داخل "غرفة المطالعة"، فأدهشته نظافة المكتبة وترتيبها، على عكس مجمل الشقة الغارقة في الفوضى.. كانت هنالك طاولة عملاقة علقت فوقها لافتة تقول: "ركن الجرائد".. بالفعل وجد أعدادا هائلة من الجرائد العربية والانجليزية والفرنسية على سطحها.. لمح



أيضا ستارة بيضاء ملطخة بالألوان الزيتية ومسدلة تقسم تلك الحجرة لقسمين، وقد خط عليها بالأسود عبارة: "هنا المرسم"..

قال متسائلا بوقاحة للمدعو (ساردوان) وبصره يصول ويجول أرجاء الشقة قبل توقفه عند قصر مبني من أوراق "الكوتشينة" لفت انتباهه لدقته وجاذبية شكله:

- ما هذا الجحر الذي تأوي إليه؟
- ألا يعجبك؟
- جد لي شيئا واحدا فقط كي أعجب به.. عدا المكتبة وقصر الكوتشينة ذاك!
- الشاي! دقائق وآتيك به..
- لا تتعب نفسك..
- هي شقتك، هذا أقل ما أرد به معروفك..
- كانت أمانة رددتها لك والشكر لله..
- رجال مثلك لا يقدرون بثمن، دقيقة واحدة فقط..

وخفَّ للمطبخ ليغيب عن ناظري ضيفه، الذي شعر براحة شحيحة نظير جلوسه في شقة لها مثل هذا الترتيب الغريب الذي لاحظه، شقق الرسامين الذين يحاولون مزج الجنون البوهيمي بحيواتهم بأي شكل وصورة، كما لو كان منفذ العبقرية الوحيد..

لاحظ مرة أخرى الستارة البيضاء المسدلة، ذات عبارة "هنا المرسم"..

تحرش به فضوله القديم الذي نادرا ما يفعل هذه الأيام، فنهض ببطء وتثاقل كي لا يفاجئه ظهور (ساردوان) متجها ناحية الستارة، وعازما على رؤية أسرار الفنان الذي يجلس في شقته، ولمعرفة ما إذا كان موهوبا أم لا..



أزاحها للجانب قليلا، إلا أنه فشل في تبين شيء بسبب العتمة التي سادت وطغت على اللوحات..

ارتفع صوت (ساردوان) من المطبخ:

- سكر؟

- ملعقة واحدة فقط..

وعاد، فاتخذ مجلسه الأولي منتظرا مقدم الفنان غريب الأطوار، والذي حضر أخيرا ليقدم كوب الشاي لضيفه قائلا له باسما:

- شرفتنا!

- سلمت يداك، لم نعرف بعد نوع المدرسة الفنية التي تنتمي أعمالك لها..

- أحاول أن أكوِّن مدرستي الخاصة، لكنني لا أنكر تأثري بالسريالية، بالأخص أعمال (دالي) نفسه..

- (سلفادور دالي)؟

تبسم (ساردوان) ساخرا وهو يرد:

- أجل، (سلفادور فيليب خاسنتو دالي)..

- ما شاء الله! وتحفظ اسمه كاملا؟

- ألم أتأثر بأعماله؟

وضع (سياف) كوبه على منضدة قريبة قائلا بابتسامة:

- هل أصير لجوجا إذا طلبت منك أن تريني بعضا من أعمالك؟

- ولِمَ لا؟ لمن أرسم إذن؟ لنفسي؟ أرجو أن يكون نقدك للفن عادلا!

- أعَدك بالمحاولة..

توجه (ساردوان) ناحية الستارة وأزاحها بالكامل، ثم ضغط زر إنارة ذاك الجانب من الغرفة، فصارت اللوحات الآن واضحة جلية كأفضل ما يمكن..

لم يلتفت (سياف) إلى أي من اللوحات الصغيرة أو التماثيل لأشكال قبيحة لعفاريت أو لأوثان بدائية، والفجور كان الطابع الغالب على تلك الأعمال المقيتة..

تعلق بصره على الفور باللوحة الكبيرة بالمنتصف، والموضوعة على حامل خشبي ضخم ومزخرف، كانت تمثل مشهدا طبيعيا لميناء، بحره قرمزي وسماؤه أرجوانية..

شجرة سوداء اللون ذات أفرع متقطعة، ثم العديد من الوجوه الذائبة..

أحد تلك الوجوه يتدلى من فرع، والثاني إلى اليسار عند الحافة بانسيابية، بالقرب منه وجه آخر متآكل تجمهر الدود عليه!

ثم الوجه الأخير، وكان ذائبا فوق رأس شخص نائم، شخص مألوف للغاية..

كان ذلك الشخص هو (سياف) نفسه!





الفصل التاسع عشر

همس (ساردوان) كأنه يفضي بسر:

- في عام ١٩٣١م قام (دالي) برسم أهم لوحاته «إلحاح الذاكرة».. تصور تلك اللوحة الإبداعية ميناء «ليجات»، الشجرة شجرة زيتون، شجرة هالكة متقطعة، وأهم ما في اللوحة الساعات الذائبة، إحداها منصهرة فوق رأسه النائم، في حين توزعت باقي الساعات بذات الطريقة التي تراها في لوحتي، وإن كانت التي بالقرب من الحافة جهة اليسار قد تجمع عليها النمل.. لا الدود كما في لوحتي أنا!

نهض (سياف) ببطء وحذر كأنما لمح أفعى سامة، في حين استرسل الرجل:

- لا بد وأنك لاحظت استعانتي بالوجوه بدلا من الساعات، في لوحة (دالي) رمزت الساعات إلى فكرة السيطرة على الزمن، الشجرة الجرداء مثلا صارت كذلك بسبب الزمن الذي استنفد منها مسار حياتها، النمو الطبيعي والازدهار وخلافهما.. قد كانت من أصعب اللوحات التي رسمت في القرن العشرين!

وتأمل لوحته بإعجاب ظاهري قائلا:

- يجب الاعتراف أن للجنون على عبقريته فضلا، وإن ذكر هو غير ذلك!

- لَمَ أنا في لوحتك الشنيعة هذه؟! أكنت تراقبني في البار كي ترسمني؟

- إَهدأ، وإلا لن تكون (سياف) الذي لا يهاب أحدا!

- كيف عرفت اسمي؟!

- هاك نصيحة: إذا كانت تلك هي انفعالاتك حقا بصدد ما رأيته مني للتو، فرأيي إذن أن تبذل مزيدا من الجهد استعدادا للأيام القادمة، وإلا صرت كـ(دالي)!

- ماذا تعني؟ ماذا سيحدث في الأيام القادمة؟

- ليس هذا بيت القصيد الآن، المهم إثبات أمر حساس، ألا وهو الاستعداد!

- الاستعداد لأجل ماذا؟ لَمَ تتحدث بتلك الطلاسم؟

- آه! بدأت أستشعر انفعالَا غريبا في ذاتك التي لا تهاب، فحذار من الخوف قبل أن نبدأ!

كان حديثه يدعو للخوف فعلا، إلا أن (سياف) قرر التعامل معه كما يتعامل مع مجنون لقيه مصادفة.. من يدري؟ لعل (ساردوان) مجرد مجنون مهووس قام بجمع تفاصيل عن حياته، فقام بمراقبته ومقابلة معارفه القلائل للحصول على بعض الصور التي استعملها في لوحته الشنيعة!

لكن لماذا؟ فهو ليس مطربا أو ممثلا سينمائيا، كان في الماضي مندوبا مرموقا، واليوم مجرد لاشيء، وسيموت دون أن يشعر بموته أحد..

قال (ساردوان) متناولا معطف المطر الجلدي الأسود من على الشماعة:

- أريدك أن تتصرف على سجيتك كأنك في منزلك..

- إلى أين أنت ذاهب؟

أجاب مسويا ياقة معطفه قبل خروجه:

- نفدت القهوة، سأذهب لابتياع كمية كبيرة!

وسارع بالخروج وإغلاق الباب، متجاهلا (سياف) الذي طارده بكلماته:

- لا وقت لدي لألاعيبك هذه، عليّ الرحيل الآن!!

طارت الكلمات في الهواء، ومعها عقل (سياف) الذي صرخ متعجبا: "ما الذي يحدث هنا بحق الله؟"

هل ينتظر عودته؟ ليس مضطرا إلى ذلك أبدا، ولكن ما تفسير ما يحدث هنا؟ أهو الجنون حقا؟

فليتجاهل ذلك كله وليخرج من شقة مجنون (دالي) ذاك، ومن هذا الطرف الموحل من المدينة..

لكن الباب كان موصدا بإحكام!

سمع جلبة آتية من إحدى الغرف، فأنصت وقلبه يدق بعنف.. خوف؟ لا، لن يسمح للخوف بدخوله وتملكه..

لربما كان الرجل المعتوه يربي حيوانا ما.. كانت الجلبة آتية من حجرة النوم، ووجد على أحد الأرفف مفتاح رباط تناوله ببطء موجها نظراته نحو باب الحجرة، قبل سيره نحوها بتمهل..

فتح الباب وكتم شهقة كادت تفلت من حلقه..

فقد وجد امرأة شقراء الشعر بثياب نوم ذكورية خضراء اللون متمددة على السرير الذي أصدر الصوت الذي جذب انتباهه نتيجة تقلبها عليه! لم تكن تلك المرأة نائمة، بل كانت تنظر إليه ببسمة غامضة على شفتيها



الحمراويـن، واضعة ذقنها ذات الغمازة عـلى مرتكز صنعته من أصابعها، وقد شرعت تؤرجح ساقيها في الهواء بطريقة طفولية عابثة!

بقي (سياف) صامتا مرتبكا، فسألته المرأة بصوت يتقاطر دلالا:

- ما بالك؟ هل أكلت الهرة لسانك؟

ونهضت ببطء..

فكـر بأنها مجرد فتـاة "موديل" من اللـواتي يتعرين كي يتم رسـمهن، لابد وأنها كذلك.. الغريب حقا بالأمر الشـبه الخارق الذي لاحظه بينها وبـين (شـارون تآيـت)! الممثلـة القتيلة التي شـاهد صورهـا وبعضا من أفلامهـا، تلك الممثلـة التي ذبحتهـا وطفلها الذي كان لا يـزال في بطنها جماعة (مانسون) السفاح في أواخر الستينات!

سألته وأناملها تعابث بغنج خصلات شعرها الأشقر الناعم:

- فيما تفكر؟

- في مغادرة هذا المكان!

- إذن.. لِمَ لا تفعل؟

خـرج منَ الحجرة مسرعا باتجاه باب الشـقة، فشـدّ عـلى مقبضه بضع مرات قبيل تذكره أنه موصد بإحكام!

لحقت به الشقراء الجميلة قائلة بمرح:

- إلى أين؟

- ما الذي تريدينه مني؟

- أنت أدرى!

- أنا لا أدري شيئا!

قالها غاضبا، فهمست له بشفاه واجمة وهي متكئة على الأريكة:



- أحقا؟

- أريد الخروج فحسب، أرجوكِ!

- قيل لي أنك لا تخاف، بصراحة هذه نبرة شخص خائف!

- لا أريد أذية أحد، أريد الخروج من هنا فحسب..

- لا بأس، أخرجك من هنا شرط أن تعطيني سيجارة!

شعر أنها تسخر منه، ورغم ذلك عبثت يده في جيبه بحثا عن سجائره، حتى وجد واحدة أخرجها وألقاها لها..

ابتسمت في سخرية، وجلست على الأريكة واضعة ساقا على ساق متسائلة:

- وكيف أشعلها أيها الحذق؟ بأنفاسي؟

رمى لها علبة أعواد الثقاب، فأعادتها له بذات الطريقة قائلة باحتداد:

- أريدك أن تأتي وتشعلها لي..

شعر بالمهانة إزاء قولها، لكنه تقدم مع ذلك مشعلا عود ثقاب على عجل..

- "اقترب ولا تخف!"

أشعل لها سيجارتها، فشكرته بإيماءة من رأسها، ثم طلبت منه برقة الجلوس ففعل مرغما..

أخذت نفسا شديد العمق من سيجارتها دون أن تسعل، قبل أن تطلق السحب الرمادية في الهواء..

- "والآن نتطرق لصلب الموضوع، هنالك طريقة وحيدة لمغادرة هذه الشقة.."



كاد يذكرها بقيامه إشعال سيجارتها متما ما أرادته منه، ثم صمت مدركا أنها تريد ما هو أكثر، ولم يرد أن يبدو أكثر كمغفل يسهل خداعه..

بقيت محدقة بنسيج السيجارة الدخاني المتصاعد ببطء مسترسلة:

- هنا أم بالداخل؟

- لا هنا ولا بالداخل.. رجاءً!

- لِمَ الخوف؟ إذا كنت تخشى السعر فلا تخف..

وغمزت له مواصلة التدخين، فتصاعدت درجة حرارته قائلا بتوجس:

- وهل تفعلين ذلك مع كل الذين تستلطفينهم؟

- بصراحة أنت الأول!

- آسف..

- أنت لا تعني ما قلته..

- بل أعنيه، أرجو أن تخرجيني الآن.. لو سمحتِ!

واتجه إلى الباب مرة أخرى، دون أن يتنبه للغضب الجنوني الذي عصف بوجهها وهي تحدق في ظهره الذي أعطاه لها..

لم يشعر إلا وطرف سيجارتها المتقد يلتصق بجنبه، فأفلتت منه آهة وهو يستدير بسرعة نحوها ويصفعها بعنف على وجهها..

انطفأ غضبه المشتعل دفعة واحدة وهو يرمق دمها الذي انساب حتى ذقنها، فغمغم بلهجة المعتذر النادم على فظاظته وهو يمد يده لمعاونتها على النهوض:

- سامحيني فلم أكن اقصد..



بوغـت ببصقة الدم التي أصابت عينـه اليمنى، وبينما عكفت يده على مسحها سمعها تقول بنبرة شديدة التوحش:

- إذن في الداخل!

- ما خطبك يا امرأة؟

ابتسمت بطريقة أزعجته وهي ترد بتمهل:

- لِمَ لا؟ القساة أمثالك هم صنفي المفضل!

- أَلا تستسلمين؟ قلت بأني لن أفعل..

مسحت بعضا من الدماء بأناملها، هامسة بنعومة زادت من انزعاجه:

- هل تراهن؟ دعهم يسـمعون صراخي، وحينها يدخلون سـيكونون شاهدين على عملية الاعتداء التي كنت تحاول القيام بها!

قال وأعصابه تكاد تفلت منه مجددا:

- لِمَ كل هذا الإصرار العجيب؟

- كُنـت أسـتلطفك وأرغب بقضاء وقـت ممتع معك، أمـا الآن فأود الانتقام منك فقط لتلك اللطمة الهوجاء!

ثم نهضت متجهة إلى المطبخ وهي تسأله دون أن تلتفت له:

- ما رأيك بشراب مريح للأعصاب؟

- ما رأيكِ بإطلاق سراحي للحمام على الأقل؟

- يمكنك بالطبع الذهاب، لستُ عديمة الرحمة إلى هذا الحد!

تحـرك إلى الحمام مسرعا وهـو يهمهم بكلـمات دون ذات معنى.. كان مرتبكا متوجسـا لأقصى حد، وأقفل الباب بالترباس النحاسي، ثم جلس على غطاء المرحاض مفكرا في تلك الورطة التي وقع بها..



جانب داخل نفسيته المضطربة استشعر نشوة لا حدود لها، متخيلا نفسه مع حسناء كالتي بانتظاره، جانب آخر أشعره بأنه سيفقد شيئا هاما يمده بالقوة، إن استسلم لها ولأهوائه الجانحة دوما لجموح لا أخلاقي..

لم يشعر أن الله يراقبه كما شعر الآن، وبأنه بموضع أهم اختبار اليوم، إما الاستسلام لشهوة عارمة لكنها مؤقتة كالدنيا بأسرها، أو الخروج بتذكرة ياناصيب قد تؤهله لولوج الفردوس!

بوغت بطرقات خشنة على بابه، فهتف متوترا:

- لا تقلقي هكذا! سأخرج بعد قليل..

- إذن عَجِّل!

إنها مصرة تمام الإصرار، والغريب أن إصرارها قد زاد من إصراره على الخروج سالما من غضب ربه عليه..

ثم تذكر تلك الحكاية التي سردها شيخ (صالح) في أحد دروسه، حكاية (المسكي) الذي أبدله الله رائحة القذارة التي لوَّث بها وجهه وبدنه من الحمام برائحة المسك التي ظلت تفوح منه حتى مماته، وبقيت عالقة عليه في قبره، كل هذا لأنه رفض محاولات إغواء المرأة التي أرادت ارتكاب الفاحشة معه، فخرج لها ملطخا نفسه بالقاذورات مما دفعها لطرده من منزلها!

كانت فكرة وإن برز مدى بشاعتها وتأفف النفس منها، ووجد نفسه ينهض ويرفع غطاء المرحاض ليلق بنظرة، لكنه فوجئ بالكبنيه النظيف وقد سكبت داخل الفتحة مادة مطهرة أيضا!

- "وبعد؟ هل ستظل هكذا للأبد؟"

- "ثوان فقط.."



فكـر بفعلها من ثم تلطيخ نفسـه، فكانت المشـكلة أنـه لم يكن جاهزا لفعلها!

هنا أتته الفكرة على حين غرة، اتقدت في ذهنه كشعلة وسط الضباب، فقام على الفور بدس السبابة والوسطى معا داخل حلقه!

- "هل ستخرج أم أصرخ وأدعهم يأتون لكسر الباب الذي تختبئ وراءه؟"

أخيرا خرج.. وكانت هي واقفة لاستقباله، فأفعمت أنفها رائحة أقل ما يمكن وصفها بالبغيضة، كانت رائحة القيء الذي استخرجه بضراوة من معدته، فلطخ به وجهه وثيابه!

"هل جننت؟! إليك عني!!"

هكـذا صـار الصياد صيـدا، وبطريقة أقرب للمداعبـة شرع يطاردها وهي تصرخ:

- إياك أن تلمسني!

- وليلتنا المنتظرة؟

- أيها المجنون!!

ثم شـتمته بألفاظ غاية في البذاءة وبأعـلى صوت، حتى بعد إخراجها المفتاح من مخبئه، ومغادرتها الشقة صافقة الباب بكل قوتها!

وتهاوى (سـيـاف) على الأريكة شـاعرا بقواه تخور، كان يبتسـم بسمة المنتصر رغم عدم يقينه التام من نصره، فقد شـعر أن جزءًا هائلا منه أراد وبشـدة تلك الغانية، ورغـم ذلك أنصت للصوت الغامـض الذي تردد بداخله وانزلق بخفة إلى الطريق الآخر المجهول..



كان الدوار والغثيان قد نالا منه جيدا، شعر بعجزه عن رفع إصبع واحد في يده، وبتشويش مريب في حواسه بأسرها، وانفتح فمه كمغارة علي بابا ليسيل اللعاب بغزارة منه، وعقله يستصرخ: "ما الذي دهاني بحق الله؟"

وبينما هو على تلك الحال المزرية انفتح باب الشقة، وببطء ورفق دلف (ساردوان) حاملا معه كيس حاجياته التي ابتاعها، معلقا نظارات شمسية على رأسه وفمه يمضغ شيئا..

ابتسم ابتسامة واسعة عندما وجد (سياف) على تلك الحال، وبنبرة هادئة قال:

- أنت كما أنت.. لم تتغير إذن!

لم يتمكن (سياف) من الرد بالنطق أو الإشارة، فاقترب (ساردوان) منه أكثر وهو يتساءل متصنعا الشفقة:

- هل أنت مريض؟

أرى آثار قيء بشري تملأ فمك وثيابك!

تبدو حالك مزرية، لكن لا تخف، لن تموت.. ليس الآن على الأقل!



الجزء الثالث



الفصل العشرون

كان الرجل الذي أذاه طيلة حياته قبل رحيله، وأذاقه التوجس والهواجس المروعة من المستقبل المجهول، راقدا على سرير مريح ضخم..

اقترب منه (سياف) حانقا ومتهيبا بآن واحد، دقق في ملامحه ذات التجاعيد الغائرة كأحافير بالغة القدم، وأنفه المدبب الشبيه بأنوف السحرة في قصص الأطفال، قبل إدراكه أن الرجل قد وافته المنية أخيرا.. لم يحزن ولم يسعد، شعر فقط بخواء عميق..

اقترب منه بتمهل، ثم همس له وكأنه يخشى إيقاظه من سباته الأزلي:

- أيها الظالم التعس! لِمَ صنعت بنفسك وبي ما صنعت؟

فكر أن يربت على أنامله المعروقة الهامدة، إلا أن قسوته وذكرياته أبيتا وأنفتا تتويج العلاقة بينهما بالصلح، خصوصا أنه من طرف واحد نظرا لأن الآخر قد رحل، ولربما بغير أسف أو ندم على ما اقترفه بحقه، وفضل (سياف) تركه يواجه ربه كي يلق جزاءه العادل دون الدعاء له أو الترحم عليه حتى..

في بنصره الأيمن التمع كعادته، الشيء الوحيد القيم في ذلك البدن الذي سيصير بعد فترة بسيطة مأدبة لدود الأرض، خاتم جميل أبدع



صانعه نقشه، فصه من الزمرد الأسود الحقيقي، لم يدر (سياف) لِمَ جذبه منظره هذه المرة أكثر من ذي قبل..

تناوله برفق بين أنامله، وداعبه مداعبة خفيفة ماسحا فصه الثمين بإبهامه كأنما يستوثق من أصالته، فلم يشعر إلا والدخان يتصاعد في الأرجاء، وانتصب شعر رأسه عندما سمع أحدهم يقول من وراء ظهره:

- ناديتني فلبيت النداء!

التفت ذاهلا، فوقع بصره على شخص غامض، يلفه الدخان الضبابي فلا يظهر من ملامحه شيئا، يتقلد سيفا بتارا بقبضة سياف صارمة لا تعرف المزاح، وبنبرة أقوى من سابقتها سمعه يقول:

- أمنيتك!

استجمع (سياف) قواه الواهنة، وبصوت راجف قليلا قال:

- أريد الراحة..

- لك هذا..

ثم شهر سيفه بخفة مفاجئة، وبمباغتة مروعة هوى به على عنقه!

- "لا!!"

هبَّ (سياف) من رقاده الشبيه بغيبوبة متحسسا عنقه، وعندما ارتاح إلى أنه لا يزال في مكانه تلفت حوله..

وجد نفسه في مسكنه الحقير وعلى فراشه، فتلمس صدغه هامسا لنفسه:

- يا له من كابوس!



ورقد مرة أخرى على الفراش مقررا مواصلة النوم وعيناه تتأملان السقف المتشقق، أراد لصداعه الرحيل، ولم يملك في الوقت الراهن وسيلة أكثر فعالية من النوم..

كان قد أقنع نفسه أن ما رآه لم يكن سوى حلم غريب، بل مجموعة من الأحلام الغريبة إذا ما أضاف إليها سائر الغرائب التي وقعت له في شقة ذاك الرسام المجنون، مجرد كوابيس سببها انغماسه المفرط في عالم حماقات وهلاوس الميتافيزيقا مذ أبصر جثة صاحبه الشيخ..

- «أما آن لي أن أستقر وأتحول إلى ابن آدم لا يميزه شيء عن باقي البشر؟»

وحجب بصره بساعده مفكرا، كانت الكوابيس التي رآها تلح على ذهنه بشدة، في الماضي كان يتغلب على ذلك كله بكأس أو بضعة كؤوس، شيء ما ماكر وخبيث أخبره بأنه لا يملك سوى هذا الحل، وبأن مقاومته المزعومة ستتداعى عاجلا أم آجلا، فلِمَ المماطلة والمكابرة اللتان لا طائل منهما؟

وجد نفسه ينهض من رقاده مغيرا رأيه، شعر بجوع شديد يضايق معدته، فاتجه للمطبخ مزمعا تحضير طبق من البيض المقلي، ومسح ببصره أرجاء سكنه، فوقع بصره على مفاجأة أثارت له اهتمامه..

- "أخيرا عدت؟ ماذا جلبت لي هذه المرة؟"

الهر الأسود جالب النحس! لمحه يلعق قدمه اليسرى بنهم تحت الطاولة..

وبجواره، أبصر (سياف) نظارات طبية ذات إطار فضي مزخرف!

- "نظارات هذه المرة؟ ماذا سيحدث إن ارتديتها؟ سأرى ما يدور خلف الجدران؟"



دنا والتقطها ببطء، ثم وضعها على عينيه..

لم يبصر شيئا ذا قيمة، فتمتم بخيبة أمل باحثا عن الهر الذي وثب بعيدا ما إن اقترب منه:

- شكرا على أية حال!

سمع مواءه من أسفل سريره، فقال متجها دون أن يبحث عنه:

- وجائع أيضا؟ سأفتح لك علبة سردين بعد قليل..

اتجه إلى الثلاجة، وفتحها لينقب داخلها عن شيء صالح للأكل لهما معا..

- "لا أصدق، نفد البيض بتلك السرعة؟

وهرش ذقنه مفكرا بصوت مسموع:

- ما الذي سأتعشى عليه إذن؟

- "بإمكاني التنازل لك عن حصتي من علبة السردين!"

انتفض (سياف) كمن لسعه دبور في مؤخر عنقه على حين غرة، وتلفت حوله بسرعة شبه مذعورة وقبضته تخطف سكينا من الرف، وبصوت محتد صاح:

- من هناك؟

- "خائف يا (سياف)؟"

شعر بأحد يربت على ساقه، فخفض بصره ببطء ليجد مخلوقا مرعبا أسود اللون كثيف الشعر يداعب بمخالبه طرف سرواله، وهو يرفع رأسه الشبيه بالوطواط لفوق كي يصوِّب مقلتين خضراوين باتجاه حدقتي (سياف)، قبل أن يتحرك فمه متشابك الأنياب متسائلا بمكر:

- أم أنك تتظاهر بعدم الخوف؟



الفصل الحادي والعشرون

بينما كان (سياف) – بشعر رأس منتصب – يتذكر أفلام التحريك بالكمبيوتر التي شاهدها مؤخرا في السينما، والتي بواسطتها يمكن إقناع المرء بأمور يستحيل تصديقها كتحدث الحيوانات العجماء بشفاه متحركة ناطقة كالبشر، كان المخلوق الأسود قد كفَّ عن لعق مخالبه قائلا بلهجة ملول:

– هل تعلم أن الأوائل الحمقى في الغرب اعتقدوا بأن جرجرة ذيل الهر الأسود يجلب الثراء؟

الهر الأسود تجسيد للشيطان عندهم، فيجلبون واحدا ويحملونه على ظهره كيسان، كيس يمتلئ بالذهب والفضة والآخر يترك فارغا، ويطلق الحيوان الأليف بلا وجهة محددة يذهب إليها، لكنه عندما يعود يكون الكيسان ممتلئين بكميتين متكافئتين من الذهب والفضة، ولا يحصلون على حِمله إلا بجرجرة ذيله مرة واحدة فقط، وإلا أفلت بما حمل!

يلعنون الشيطان ويطلبون من الرب حمايتهم منه، ولا يتورعون عن الاستفادة من خدماته لهم!

أوليس في ذلك مدعاة للسخرية؟

أخيرا تمكن (سياف) من النطق، فقال محاولا ألا يجن:

- أهو حلم سخيف؟!

- المسني كي تتأكد من أنه ليس كذلك!

- كابوس إذن!

- كفَّ عن تخمينات المجانين التي تجيد القيام بها!

- كنت أتوقع الجنون، لكن ليس بتلك الصورة المروعة، إنه عقاب اللهِ لي!

- ما زلت آملا غفرانه لك؟ كما عهدتك دائما!

- إنها العلامات التي لم يحدثنا أساتذة الدين بخبرها!

- اهدأ يا رجل..

- إنه ينصحني بالهدوء! الحيوان الأسود الذي لا يعرف سوى الأكل واللهو مع الفئران!

- والتبصير أيضا! هل ستهدأ الآن؟

- أريد أن أعرف الآن ما أنت وما الذي تفعله هنا..

- الأمر بسيط في هذه الحالة، أنا هر!

- مجرد هر؟!

- أتقصد شكلي الحقيقي؟ هي قوة النظارات التي رددتها إليك! دعك منه الآن.. لقد كانت مهمة تنظيف مسكنك من الفئران، والتمسح بسيقان بنات الجيران، والتهام السردين وشرب اللبن أمورا مسلية!

- إذن كنت تقوم بكل تلك الأمور بهدف التسلية فحسب!

- لم أقل ذلك بالضبط، كنت أقوم بكل تلك الأمور، لكنني تسليت كثيرا أثناء قيامي بها..



تهاوى (سياف) على أرضية المطبخ، وجعل ينبش في جيبه باحثا عن سيجارة وهو يتمتم:

- من تكون حقيقة؟

وثب المخلوق الأسود غريب الأطوار على مقعد خشبي قريب، وبنبرة اعتداد قال:

- يدعونني (أنكرمانيو)..

- عفريت إذن!

- الأمر لا يحتاج إلى خبير لمعرفة ذلك، فما بالك بواحد مثلك؟

- واحد مثلي؟

- لنقل أكثر البشر المعاصرين احتكاكا بعالمنا المعقد!

- عالمكم المعقد؟ مالي ومال عالمكم؟!

- الدنيا صندوق مفاجآت لا تنتهي!

فكر (سياف) بطرده، لكن حائطا من الخوف صدَّه، فتساءل برهبة:

- ما الذي تريده مني يا هذا؟ وما حكاية الأغراض التي كنت تتركها لي؟

- بعد كل تلك السنوات التي قضيناها معا تخاطبني بهذا الشكل؟

- عن أي سنين تتحدث؟!

- خسارة، المهم أن تكون جاهزا للأسوأ، من جهتي رددت لك كل ما تحتاجه و..

- ماذا تعني؟ هل انفتحت أبواب الجحيم دفعة واحدة؟

- لا، ولكن يكفي انفتاح باب واحد كي تتبعه بقية الأبواب! في الحقيقة أنك بت قريبا من الموت أكثر من أي وقت مضى!



- أتقول بأني سأموت قريبا؟ يا لك من أحمق! أنا أموت كل يوم وما من أحد يشعر بموتي..

- دعك من هراء البشر الذين لا يدركون مدى عمق مسألة الموت، فيعالجونها بمثل تلك الكلمات الجوفاء، الحياة مجرد نكتة إذا ما قورنت بالموت فهو البداية الحقيقية، فلا تواصل الحديث كمراهقة تزوج عشيقها بأخرى أو كتاجر كسدت تجارته..

- حسنٌ، أعترف أنك أثرت فضولي..

خيل له أن لهجة المخلوق قد انقلبت سخرية محضة لما قال له:

- أيها التعس! أنت قد ارتعدت عندما رأيتني على حقيقتي، فما الذي سيصيبك لو أن..

- لو أن ماذا؟ أنت تحاول إثارة مخاوفي بعبث العفاريت الطفولي..

- مجرد جاهل يتظاهر بحسن المعرفة! هذا هو أنت! ولو كنت مكانك لأطبقت فمي على كبريائي المصطنع، ولأنصت صاغرا مستكينا متوجسا ومترقبا لما هو أسوأ!

- أخبرني فقط ما إذا كان الرسام المجنون هو من أرسلك..

أبصر بريقا - أثار مخاوفه مجددا- التمع في عيني المخلوق المخيفتين، وقال الحيوان متوعدا:

- إياك أن تذكره باستخفاف هكذا، فهو أفضل.. منك!

صمت (سياف) عاجزا عن الاسترسال، فأناب (أنكرمانيو) عنه:

- إليك ما ستصنعه بالضبط، وإياك ثم إياك أن تبالغ في ثقتك البشرية المصطنعة بنفسك، فهي تافهة، ووقت الشدائد لن تسعفك..



تذهب في التو واللحظة إلى شقة الرسام، وتنفذ كل ما يقوله لك بالحرف الواحد..

تملكته روح التحدي مرة أخرى، فهتف محتدا:

- وإن لم افعل؟

- ستفعل..

وابتسم - أو أن (سياف) توهم ذلك-، ثم وثب إلى حاجز النافذة المفتوحة، قبل وقوفه على الإفريز والتفاتته إلى (سياف) برأسه فقط مخاطبا إياه بوجل:

- سيكون هذا آخر لقاء بيننا ولن تراني مجددا..

- أشعر بالارتياح لسماع ذلك!

- هذا ما تحسبه أنت! ولتكن نصيحتي الأخيرة لك هي: حذار من المكابرة والكبرياء، ثمة أمل ضعيف في نجاتك، والعون الوحيد لك يكره وبشدة المكابرة، والكبرياء البشري الأجوف!

حظا طيبا، وجزيل الشكر على فئران خزانة ملابسك التي تحتفل كل ليلة بقرض ما بداخلها!

نطق جملته الأخيرة باستهزاء قبل وثوبه عبر النافذة..

حدق (سياف) من خلال النافذة بصمت الذاهل، وكما توقع لم يجد له أدنى أثر، لربما تلاشى عائدا إلى عالمه، أو أن تقمصه شخصية هر لا هم له سوى اصطياد الفئران واللهو على الأرائك قد فتنه، لا يهم، المهم الآن هو القرار الذي يجب أن يتخذه حالا..

أخيرا، اتخذ قرار المضي قدما في حياته!

تبا ل(أنكرمانيو) ومملكة العفاريت الوهمية قاطبة! لن يملي عليه مخلوق بشع كيفية ممارسته حياته، وهو لا يحتاج إلى مغامرة خيالية حاليا، بل لوجبة ثم قيلولة يريح بها أعضاءه..

تنفس الصعداء قائلا لنفسه بلهجة مظفرة:

- زال الهر المزعج من حياتي أخيرا!

أو أنه تظاهر بالظفر، ومن ثم ازدرد ريقه بصعوبة!





الفصل الثاني والعشرون

طرق باب الشقة المشبوهة حتى كلت يده ولم يجب أحد..

فكر (سياف) بضيق أنه قام بـما يتوجب عليه، إذ أتى لزيارة الرسام المجنون ولم يجده - لحسن الحظ -، لكن هذا لم يمنعه من اتخاذ إجراء أخير..

جذب مقبض الباب لأسفل فاستجاب له وانفتح، فأطل بوجهه أولا والحذر يملأ كل خلجة من خلجاته، كما أن رهبة قاربت الخوف امتدت لتسري في عروقه، كما لو كان أحدهم يتربص به كي يفاجئه..

وجد الشقة خاوية على عروشها، جميع قطع الأثاث واللوحات قد اختفت كأن لم تكن!

سكون مخيف يلف الشقة بصورة مريبة، وفكر جزء يقظ من عقله بالرحيل، لكن الأجزاء الأخرى أمرته بتفقد باقي الغرف..

وجدها كلها خاوية، فاستشعر شيئا من البهجة لذلك، فجلس على مقعد قريب مقررا تدخين سيجارة، وبعدها يخرج من هنا غير آسف ودون الالتفات للوراء ولو لمرة..



قال لنفسه وهو يبحث في جيبه بعصبية:

- يا له من جنون! هلاوس تصيب عقل المرء بقصد التلاعب به..

لم يشعر بالاقتناع لما هرف به، لكنه شعر بحاجة ماسة للحديث العقيم الذي لا رجاء منه، ثمة قطعة ناقصة من عقله كجزء من أحجية، ربما ببعض الثرثرة سينجح في إيجادها وإعادة تركيبها أملا باستعادة التفكير المنطقي من جديد!

وعندما لمح تلك الورقة على الجدار تقوض أمله بالخلاص، فهو متأكد - لدرجة الاستعداد للقسم- من أنها لم تكن موجودة قبلا!

لقد ظهرت تلك الورقة هناك بقدرة قادر، ربما هي مذكرة من عالم العفاريت!

اقترب من الجدار لتفحص تلك الورقة، فوجدها تقول:

"ذهبت لزيارة (اسكليبيوس)"!

قام بانتزاعها من على الجدار قائلا لنفسه بتهكم:

- ثمة (اسكليبيوس) في الموضوع، أتراه لقب دعابة أم (اسكليبيوس) حقيقي؟

ودسَّها في جيبه قبل مغادرته الشقة، فقد اتضحت له الخطوة التالية رغم غموضها الظاهر..

قطع رحلة استغرقت منه نصف ساعة بسيارة أجرة، وأثناء الطريق سمع السائق يقول متململا:

- سنوات ونحن ننحت ونكد في هذه الشوارع التي لا تجلب سوى وجع الرأس..

ردَّ (سياف) وبصره مشغول بالطريق:



- لا داع للاسترسال، فأنا أعمل على المجلى في أحد المطاعم..
- إذن فلا يوجد من هو مقدر لحالي أكثر منك!
- وبعد؟ أنا مقدر، لكن ما الفائدة؟
- أجل، وتلك هي المشكلة..
- تلك هي المشكلة منذ زمن، ولربما لا وجود للحل الذي نحلم بوجوده منذ الأزل!
- أعوذ بالله، لَم كل هذا التشاؤم يا زميل؟
- إذن أسحبَ كلامي، يوجد حل لكن تسلح بالصبر!

نطقها بصبر نافد مغطيا بصره وجبهته بكف مفروودة، كان منزعجا لاضطراره القيام بهذا المشوار السخيف الذي سيدفع عليه نقودا يعلم الله أنه أحوج لها، وكل هذا للتأكد من أنه لم يجن بعد..

أخيرا بلغت السيارة المستشفى القديم الذي أنشئ في الستينات، وبقي صامدا مهيبا حتى اليوم، فترجل (سياف) من السيارة بعد أن نقد السائق أجرته، ولم يجادل هذه المرة في الأجرة رغم ارتفاعها والعداد معطل!

ضاق أنفه برائحة المطهر التي ملأت أجواء المستشفى الرحب، وبلغت مسامعه أنات المرضى الرائحين والغادين بانتظار المعجزة التي ستخفف عنهم عذاباتهم، فدنا من مكان عمل موظفة الاستقبال، ملاك رحمة ممتلئ ذات شعر قصير وأسنان متفرقة مصفرة، رمقته بنظرة أصابته بالكآبة، قبل أن ينطق قائلا ببسمة متكلفة:

- أبحث عن مريض يدعى (اسكلييبوس)..

تأملته طويلا قبل ردها واجمة: -

- لا يوجد عندنا مريض بهذا الاسم بل طبيب!
- إذن فهو الطبيب!



رمقته بنظرات متشككة وهي تقول:

- انتظر لحظة..

ورفعت سماعة الهاتف العتيق أسود اللون وإصبعها يدير قرص الأرقام، بينما هو يحدِّج ببصر متعاطف طفلة لطيفة الملامح، ذراعها موضوعة في جبيرة ومعلقة برباط حول عنقها، فتورد وجه الطفلة مما دعاها لدفنه في حجر والدتها الغافية على أحد المقاعد..

- "الطابق الثاني، المكتب رقم ١٢.."

التفت للمرأة وشكرها بهزة رأس سريعة، ثم اتخذ طريقه عبر ممرات المستشفى باحثا عن مصعد..

وبعد بحث دام بضع دقائق وجده أخيرا - وكان بحال مزرية لكنه يعمل-، وقد وقفت بانتظاره ممرضة بارعة الحسن تجر مقعدا متحركا جلس عليه عجوز كسيح بائس المنظر والنظرات.. ابتسمت له فبادلها البسمة مجاملا، ثم رمق العجوز بنظرات تعاطف غير حقيقية تماما، لربما الغرض منها هو جذب انتباه الحسناء إلى أن قلبه يفيض رحمة وتعاطفا، وقد استشعر شيئا من السرور لما وجدها تبادله نظرات الأسف المزعومة على العجوز!

وصل المصعد ففتح بابه، فانتظر (سياف) بلباقة حتى ولجت الفتاة والعجوز ومن ثم دخل خلفهما، وضغط زر الطابق الثاني وهو ينظر للفتاة نظرة تساؤل..

- "الطابق الأول لو سمحت.."



شعر ببعض الخيبة لأن تعارفهما قد انتهى بهذه السرعة، لكنه لم يُظهر ذلك في ملامحه وهو يضغط الزر الذي يحمل الرقم واحد، فأضاء لبيان تلقيه إشارة التوقف في ذلك الطابق..

تحرك المصعد لفوق مصدرا هديره المعدني، وما هي إلا ثوان حتى توقف في الطابق الأول وانفتح بابه، فخرجت جميلته وهي تدفع الكرسي المتحرك أمامها، فسألها (سياف):

- أتحتاجين إلى مساعدة؟

- لا شكرا، بإمكاني تدبر أمري..

خيل له أن العجوز قد رمقه بنظرة خاطفة ذات سخرية!

ظل مسمرا بمكانه مسائلا نفسه عما إذا كان يتخيل أم أن ذلك ما رآه بالفعل، وارتفع به المصعد بعدما أغلق بابه إلى الطابق الثاني..

انفتح الباب، فخرج (سياف) واجدا نفسه في ممر خال من المرضى والأطباء والممرضات، سار فيه، ولم يتساءل أين ذهب الجميع، بل شعر بالراحة والاستكانة لذهابهم، لا أنات ولا صراخ ولا دماء! المكان نظيف، نظيف لدرجة أنه تمكن من رؤية وجهه على البلاط الأبيض المصقول..

وجد بوابة بانتظاره، فما إن قام بدفعها حتى فتحت أبواب الجحيم على مصراعيها!

اندفع سرير للخارج يرقد عليه رجل تتصاعد منه رائحة شياط، كان الدخان يخرج منه بكثافة وكأنه قاطرة دخانية.. ومن حوله تدافع حشد من الأطباء وهم يتصايحون، لم يفهم (سياف) حرفا مما قيل، فهو لم يكن هنالك بتاتا..



كان يقف متصلبا أمام بركة من الدماء لم يدرك مصدرها، دماء طازجة لابد وأنها سالت قبل قليل من مصاب ما، فشعر ببعض الذعر عندما رمق حذاءه الملوث بقليل من الدم، والحقيقة أنه احتار أكثر مما ذعر، فلم يسبق أن أثارت الدماء رهبته وذعره إلى تلك الدرجة الهستيرية..

أبصر وسط تلك المعمعة الرقم المنشود على أحد الأبواب، فسارع بولوجه وقد علا صوت شهيقه وزفيره..

بالداخل، وقع بصره على مكتب عتيق لطبيب، جهاز فحص الضغط وسماعة على طاولة معدنية، موقد بنزن وجفن للبصاق وبضع أنابيب اختبار ملأى بسوائل من الإفرازات البشرية المقززة، وعلى الجدار الخلفي علقت لوحة عملاقة لجسم بشري مشرح مع الأسماء باللاتيني لكل عضو وبالأسهم المشيرة لها..

وقف صامتا وذهنه شارد يبحث عن حل، هل يغادر أم يبقى وينتظر؟

- "آسف لجعلك تنتظر!"

التفت بسرعة شاهقا، لكنه وجد رجلا قصير القامة خفيف الشعر سميك النظارات كث الشارب يدلف مقلبا أوراق ملف، فتساءل (سياف) بحيرة:

- دكتور (اسكليبيوس)؟

- من؟!

بدا مندهشا لثانية واحدة قال بعدها بنبرة متزنة:

- الحجرة رقم ١٢ يا أخي، هذه الحجرة تحمل الرقم ١٨ !

شعر (سياف) بالدهشة لسماع ذلك، وزاد من دهشته أن ألقى بنظرة على الباب من الخارج ليجد أن الرجل كان محقا!



لطم جبهته بقسوة كما لو كانت سبب غياب ذهنه، ونحو الباب المنشود تراجع.. كان مفتوحا، وعلى الفور وبصبر نافد ولج (سياف) الحجرة هاتفا:

- وآخرة هذا العبث؟

رفع (ساردوان) بصره عن صورة الأشعة التي كان يطالعها على ضوء اللوح، فبدا مظهره طريفا بالمعطف الأبيض والنظارات التي ارتداها رغم شعره وذقنه البوهيمية!

كان يبتسم بسمة مرحة وهو يرد قائلا:

- أخيرا، ألا تميز بين ال١٢ وال١٨ يا أخي؟ لا بد أن تفحص نظرك.. خذ بنصيحة طبيب!

رمقه (سياف) بنظرة باردة قبل أن يقول:

- أنت لست طبيبا..

- حقا ؟ ماذا أكون إذن؟

- رسام غريب الأطوار ومدمن مشاكل..

- ولربما طبيب أيضا.. على فكرة، كنت أعلم أنك ستتمكن من فهم المذكرة..

- المسألة بسيطة إلى حد ما، ف(اسكليبيوس) هو إله الطب لدى الإغريق، وهذا هو المستشفى الوحيد هنا، إنها دعابة من دعاباتكم ثقيلة الظل..

- دعاباتنا؟ ومن نكون بالضبط؟

- الجان! العفاريت! ما الذي تريده مني؟! ما الذي تريده؟!

- أن أسألك بعض الأسئلة..

- عن ماذا؟

- في أي عام انتهت الحرب ما بين العراق وإيران؟
- ماذا؟
- لا تعرف؟ إذن أين تقع مقبرة "نوفوديفيتشي"؟
ابتسم (سياف) قائلا وهو يحرك إبهامه بحركة دائرية جوار صدغه:
- أنت مجنون يا صاح، مجرد مجنون.. كان لا بد لي من إدراك ذلك منذ البداية!
- إذن ما معنى "ديماغوجي"؟ "ميتاسركاريا"؟ "بوليميا"؟ أتملك أدنى فكرة عن "الهاسكالا"؟
- وما أدراني عليك اللعنة؟!
- ألم يعلم الله آدم الأسماء كلها؟
وتوجه إلى مكتبه المتواضع، حيث اتكأ على طرفه قائلا بوجل:
- أتراك ورثت شيئا عن آدم؟
دنا (سياف) منه وهو يقول ضاغطا على حروف كلماته بضراوة:
- اسمع يا هذا، لدي حياة، ومن الخطأ أن يلجها أمثالك كي يعيشوا فيها حتى يفسدوها تماما.. إنه لعبث مبين!
- مذ وطئت قدما ابن آدم الأرض وهو يعيث فيها فسادا كأنما خلق لأجل ذلك فحسب!
- أتحاسبني أنا دونا عن جميع البشر إذن؟
- ليست محاسبة.. وإنما معاتبة!
تبسم (سياف) بسخرية، فردَّ (ساردوان) بابتسامة مماثلة وهو يسترسل:
- لكن هذا ليس موضوعنا!
ضمَّ (سياف) كفيه معا قائلا بتلهف مصطنع:



- لا أرجوك! العمل بإمكانه الانتظار، حدثني عن نفسك قليلا!

- ما الذي تود معرفته؟

- لا أعتقد أن (ساردوان) هو اسمك الحقيقي..

- بل هو الحقيقي في الواقع، عرفت كذلك بأسماء عديدة أشهرها (ميتاترون)!

- (ميتاترون)؟ (ميتاترون)؟! أأنت..

- دعك من هراء الديانات المحرفة! إنه اسمي، ولستُ ما يدَّعون على الإطلاق!

- فما تكون إذن؟ مارد أم عفريت؟

- لا هذا ولا ذاك، أنا.. كيف أشرحها لك؟

كتم (سياف) بسمة سخرية أشد كادت تثب لشفتيه، وتساءل بجدية مصطنعة:

- كما تشاء!

صمت (ساردوان) لثوان معدودة قبل نطقه:

- لا أعلم ما إذا كان بإمكان أحمق مثلك استيعاب الأمر، لكن لا ضير من محاولة تبسيط حكايتي..

- سأتجاهل إهانتك، تكلم فكلي آذان صاغية..

نظر له الرجل بعينين التمع فيهما بريق عجيب، ضوء أبيض أثار رهبة واستغراب (سياف)، لكنه كتم خواطره..

كادت تغرورق عيناه بالدموع لما أطال النظر في حدقتي (ساردوان)، الذي قال متجاهلا ردة فعله تلك:

- أتنشد الحقيقة؟ مهما كانت مروعة؟



الفصل الثالث والعشرون

- " قل أعوذ بالله منك!"

تبسم (ساردوان) مؤرجحا ساقيه، وقال:

- طريق حالك ومقبض ذاك الذي اخترته للمضي به يا (سياف).. أظنك أتعس شخص قابلته في هذا العصر!

- أنا لم أختر أي طرق يا هذا، حياتي كانت مرسومة، وقد قمت بأداء دوري فيها، لم يتبق لي سوى إتمامه على خير وسلام..

- ويا له من دور ذاك الذي اخترته!

- لا تهزأ بي!

- أنت صنديد يا (سياف)، أنا أشهد لك بذلك، لكن حمقك البشري لا يزال سيد الموقف..

إنك يا صديقي موسوم بعلامة لا يمكن لعقلك إدراكها، وإذا حاولت فقد تفقد عقلك، علامة مروعة يكفيك أن تعلم عنها حاليا أن أشر مخلوقات الله قاطبة يرصد كل خلجة من خلجاتك، مترقبا فشلك الذي لابد وأن يأتي ذريعا ومروعا!

- أكاد أقسم أنك تحاول إثارة جنوني!



- إفهم ما يحدث كيفما تشاء، ولكن تذكر آخر مرة طبيعية مضت مذ عملت لحساب المدعو (جاد الجرجوف)!

- لدي بعض الخبرة التي بإمكانها إنبائي بأنك وهو مجرد مخلوقان بغيضان يحاولان خداعي..

- ألن تكف عن الحماقة أيها الكائن الجاهل؟

أشار (سياف) فجأة إلى وجه (ساردوان) متسائلا بقساوة:

- أهو الذي أرسلك؟ (جاد الجرجوف)؟!

- يا لجرأة الكلمات الخارجة من..

- يا لجرأتك أنت! أم تراك نسيت الغانية التي تركتها في شقتك؟

- كان ذلك مجرد اختبار تافه، شيء أقرب للمزاح، وقد أثار دهشتي واستغرابي نجاحك فيه..

- لِمَ لا تكف عن هراء الحكايات الصالحة لضرب الأمثال وتدعني لشأني؟

- أتؤمن حقا بأني شيطان يا (سياف)؟

- أجل! وبأنك ستعرض عليَّ بيع روحي كما حاول (موفيستو) مع دكتور (فاوست)!

- لا بأس، بإمكانك الرحيل إذن..

- محاولة جيدة أيها الحذق، مثل هذه الأمور المبهمة لا تنتهي بهذه السهولة!

- ما الذي تريده؟ عقد موثق؟ حفل وداع؟

- لا أريد شيئا، مادام بإمكاني الرحيل فالشكر كل الشكر لله.. وداعا!

وخطا باتجاه الباب بغية المغادرة، عندما سمع (ساردوان) يقول:

- أتدري من الذي ذبح صاحبك الشيخ؟



تصلب في مكانه، وببطء التفت للخلف شاعرا بالغليان يسري في أعصابه..

- "من؟"

- "حاول أن تخمن!"

انقض (سياف) عليه، فقبض على ياقته قائلا بغيظ:

- تريدني أن أخمن؟ لا بأس، أهو أنت؟

كان غاضبا، لاهثا، وشعر بحماسة قصوى تتدفق في شرايينه.. تدفعه لمحاولة خنق غريمه..

فجأة، سمع صوت قماش يتمزق بعنف، شيء ما يشق طريقه عبر قميص (ساردوان) من خلف ظهره محاولا الخروج!

- "ما الذي يحدث؟!"

ثم وبمفاجأة لا حدود لها بزغ على يمين الرجل الصامت المتزن جناح عملاق رمادي اللون!!

وعلى شماله شهر جناحا كالليل حالك السواد!!

خفق الجناحان العجيبان خفقات هادئة، في حين تصلب بصر (سياف) عليهما تماما..

وببسمة تهكم همس (ساردوان):

- والآن، هلا تتكرم بإنزال يديك عن ياقتي؟

شعر (سياف) بالذهول المذعور، فسارع بخفض يديه مذعورا، من ثم تراجع للوراء حتى التصق ظهره بالجدار..

- "ما بك؟ خائف؟ خائف مني الآن فقط؟"

تماسك (سياف) أخيرا وقال:



- لا، إنني متفاجيء قليلا..

- فقط؟ لقد أثرت إعجابي للتو!

نظر (سياف) إلى جناحيه، تفحصهما بناظريه مطولا قبل تساؤله الهامس:

- لماذا أحدهما أسود والآخر رمادي؟ أيرمزان للخير والشر؟

- لا! كُفَّ عن كلام الحكايات والأفلام الأحمق، هكذا خلقني الله ولله في خلقه شؤون..

- آه.. خلقة ربنا! قل لي يا سيد (ميتاترون)، أمثل هذه الألوان تعتبر عيبا خلقيا في عالمكم؟

- أتحاول إغضابي أيها الجاهل الأحمق؟

- تبدو عابسا أيها المخلوق العجيب، أخبرني إذن عن الورطة التي تحاول إيقاعي بها..

- المخلوق العجيب قد تراه في سيرك أو حديقة حيوان، وإذا حاولت التفكه معي هكذا مجددا فسأجتث لسانك البشري بيدي!

شعر (سياف) أنه قد نجح باستفزازه أخيرا، فاستعاد بعض ثقته بنفسه مغمغما وهو يبتعد قليلا عن الجدار:

- آسف، أعتقد أنك من النوع الذي يقبل الاعتذار بسهولة..

- ليس بالضرورة..

- كفَّ عن تهديدي، فانا لست سوى جاهل أحمق!

أخيرا استعاد (ساردوان) ابتسامته، فبادله (سياف) الابتسامة قبل أن يمد يده إليه قائلا:

- مرحبا بك في عالمنا التعيس!



تجاهل (ساردوان) اليد المبسوطة له، وقال وأنامله تربت برفق وحرص على جناحه الأسود الذي على يساره:

- إذن يا سيد (سياف)، إليك الصفقة..

- صفقة عمل؟ بين عالمين؟ كم هذا مثير! صحيح أنني مندوب سابق، ولكن ما نفع خبرتي مع أمثالك من ال..

- ألن تكفَّ عن السخافات؟

تأمل (سياف) الريش الذي يكسو جناحي (ساردوان)، كان يبدو طري الملمس رغم أن أطرافه بدت مدببة وحادة..

سمع (ساردوان) يقول له متخابثا:

- أتود لمسهما؟

نظر له (سياف) قبل أن يهز رأسه بالإيجاب..

اقترب بخطوات مترددة، وبأقصى درجات الحذر مدَّ أنامله باتجاه الجناح الأيمن، ثمة ما جعله يخشى لمس الجناح الأسود، ربما لأن صاحبه يوليه عناية فائقة!

كان ملمس الريش الرمادي ناعما وطريا لدرجة لا تصدق، حتى لكادت يده بأن تغوص داخله، شعور رائع وجميل بحق!

- "راض وسعيد؟ فلنتكلم بالأعمال الآن.."

قال (سياف) منبهرا:

- أتستطيع التحليق بهما؟

- يا للبشر وفضولهم المزعج! بالطبع أستطيع، الله لم يخلق الأجنحة للسباحة!

- هل بإمكانك أن تريني بعضا من مهاراتك في التحليق؟



- لا!

نطق بها صارما، وباحتداد أبعد جناحه عن متناول يد (سياف)، بالأحرى شرع بتقليص الجناحين، حتى عادا من حيث خرجا وراء ظهره، كل هذا و(سياف) يهتف مشاكسا:

- لَمَ أخفيتهما؟ دعهما يا رجل!
- يَبدو وأننا سنضيع الوقت كله بالتغزل في جمال جناحيّ!

واعتدل واقفا وهو يضيف بسخط متلمسا قميصه:

- تمزق القميص لأجل برهان سخيف، أرجو أن تكون سعيدا..
- لا تحزن، هاك سترتي..
- كنت سأطلبها منك في كل الأحوال، والآن هلم بنا..
- إلى أين؟
- حيث بإمكاننا التحدث..
- ما مشكلة هذا المكان؟

تجاهله (ساردوان) وخرج، فلحق به (سياف)، وسار إلى جواره مجاريا خطواته السريعة..

قال (سياف) وهو ينظر إلى ساعته:

- ما رأيك أن أدعوك للغداء في أحد المطاعم؟ أنت تأكل مثلنا أليس كذلك؟
- لا..
- ألا تأكل مثلنا؟ عجيبة..
- قصدت بأني لست جائعا..
- إذن فلنشرب القهوة في أحد "الكافيهات"..
- لا بأس بذلك..



هكذا اقتاده (سياف) إلى وسط المدينة، حيث يقع مقهى راق لطالما ارتاده سابقا عندما كان يعمل كمندوب لجودة صنف القهوة التي يقدمونها عندهم، فجلسا بمواجهة بعض جوار الجدار الزجاجي، بغية تأمل حركة الرائح والغادي إذا ما قررا التزام الصمت..

طلب (سياف) القهوة لكليهما، ومن خلال الزجاج نظر إلى الميدان حيث الحمائم تلتقط الرزق كيفما اتفق من على الأرض..

كانت الأسئلة محتشدة في رأسه بشكل يوشك على الانفجار.. وعندما شعر أنه لن يحتمل أكثر، وبأن صمت (ساردوان) سيطول أكثر، عجَّل بالتساؤل الملهوف:

- إذن.. أقدمت من السماء؟ أم من أحد الكواكب؟
- كلا، أنا في الأرض منذ قرون!
- ألا تصعد إلى السماء أحيانا؟

ارتسمت بسمة شاحبة على ثغر (ساردوان) قبل أن يقول:

- رأيي أن تحتفظ بأسئلتك هذه لنفسك..
- سؤال واحد فقط..
- ما هو؟

بدا التردد على (سياف) لوهلة، ثم ما لبث أن حسم تردده معجلا بالسؤال بلهفة:

- هل.. هل رأيت الله؟
- لا، لم أره ولم أسمع صوته.. ماذا كنت تظن؟!
- أليس الذي كلفك..؟
- بالطبع لا! يا لجموح أحلامك!

نطق (ساردوان) بكلماته تلك بشكل مستنكر هازئ، فاشتد غيظ (سياف) شاعرا بخيبة أمل لا حدود لها..

ثم تساءل بنبرة فاترة وأنامله تنقر سطح المنضدة بلا توقف:

- من أرسلك إليَّ إذن؟ (إبليس)؟

رسم ابتسامة واجمة على شفتيه لما أجاب:

- رُبَّ رمية من غير رام!





الفصل الرابع والعشرون

كان وجه (سياف) بشحوب ورقة الخريف المتهاوية وهو ينصت لكلمات (ساردوان) الصادمة..

- "باسم الروح الجهنمية للطاووس.."

نظر (سياف) إلى (ساردوان) متوجسا، وبأصابع مرتجفة أخرج علبة سجائره متمتما:

- لا تقل لي أن (إبليس) هو من قتل الشيخ (صالح)!

- كلا، قتله فتى معتوه تزوجت والدته برجل كرهه أشد الكره وأراد الخلاص منه بأية وسيلة ممكنة!

- ماذا؟!

- على العموم القاتل الآن يرقد في مشفى للأمراض العقلية، لن يصمد طويلا هناك، الشياطين لن تدعه يفعل!

لكن (إبليس) تسبب بمقتل صاحبك الشيخ، لذا بإمكانك اعتباره القاتل الحقيقي!

- أنا ضائع تماما.. ولماذا دفع ذلك الفتى إلى قتل الشيخ؟!



كذا تساءل مستخرجا سيجارة من العلبة دسَّها بين شفتيه، وبصعوبة أشعلها بعود ثقاب.. أما (ساردوان) فأجاب بوجل:

- بغية إرهابك! كما يصنع أي إرهابي مع رهائنه، إنها رسالة موجزة لكنها دائما فعالة..

- وما فحوى الرسالة؟ أنا لم أفهم شيئا بعد..

- ألا تذكر كابوس الزائر الذي يحاول اقتحام المنزل؟ الزائر الذي ينتظر في البرد.. ينتظر كي تسمح له بالدخول!

أتذكر الستارة الخمرية التي..

صاح (سياف) مقاطعا بغلظة:

- كفى!!

لفت انتباه أكثر الرواد، فتوقفوا عن شرب مشروباتهم الساخنة والباردة والثرثرة كأنما جمدوا، في حين استرسل (ساردوان) كأن شيئا لم يحدث:

- كنتُ دائما حولك يا (سياف)، قريبا منك معظم الأحيان، بصعوبة أوجدتُ لك دربا بين براثن النسوة وهوة الكحول، لكن الشيخ (صالح) تكفل بإصلاحك.. لطالما فعل!

راقبه بوجه شاحب والدخان يخرج من منخريه بكثافة، فقال له (ساردوان):

- ارحم نفسك، ستقتل نفسك بأداة القتل هذه!

نظر (سياف) للسيجارة مدهوشا وكأنه تنبه لها الآن فقط، فقام بإطفائها في المنفضة رغم سحبه منها نفسا واحدا فحسب..

- "إذن كنت تحاول إفسادي كديدن الشياطين!"



- "وتأرجحت ما بين النجاح والفشل.."
- " لِمَ تحاول مساعدتي إذن؟"
- "لأَننا.."
- "لأنكم ماذا؟"
- "قصدت أنا وأنت.."
- "نحن؟!"

كان شعوره قد بات مريعا، فقد شعر بأن أيامه قد باتت معدودة، وبأنه مقبل على لقاء ربه في اللحظات القادمة..

وبصوت راجف قليلا تساءل:

- لماذا أنا؟
- هذا سؤال يتوجب عليك أنت الإجابة عنه..
- حسنٌ، ماذا سيحل بي إذن؟ ماذا سيصنع بي (إبليس)؟

وصلت القهوة في تلك اللحظة، فتناول (ساردوان) قدحه قائلا:

- مبدئيا إصابتك بالجنون، لكننا أفشلنا مخططه لحسن الحظ، فقد صمدتَ طيلة حياتك بصورة مثيرة للإعجاب..
- تقصد أنه مخطط شيطاني جديد؟ مثل قوم لوط ومحاولة اغتيال نبينا الكريم؟
- لا تكن متفائلا إلى هذا الحد، فالأمر معك أقرب للتسلية!
- أتقصد أن (إبليس) يتسلى معي؟
- بك! إنه يتسلى بك، وللأسف أنك مضطر لمجاراته في لعبته المقيتة!
- رأسي سينفجر، لماذا؟ لماذا هذا الجنون كله؟ ما الذي سيكسبه ذلك اللعين؟



- لا تسأل أبدا عن دوافع الشيطان وأسباب جعله ابن آدم مجرد خاطئ كبير أو كافر أو ملحد، فالإجابة صارت تافهة وتكرارها ممل، إنه لا يعدو كونه عدو البشرية الأول منذ الأزل..

إذا أردت أن تسأل فليكن سؤالك الأنسب والأهم هو: "كيف أهزمه؟"

كيف تهزم عدوًا يحقد عليك ويحاول تدميرك؟ لديك فرصك ضئيلة للربح!

- أهو ياناصيب؟

- يمكنك اعتباره كذلك!

- لكن ماذا يتوجب عليّ فعله الآن؟ أقصد ما الذي سيحاول فعله معي بالضبط؟

تنهد (ساردوان) ثم همس:

- الله وذاك الماكر يعلمان فقط كي أصدقك القول..

- إذن سأتكلم بخواء وسط الظلمة التي لا أتبين الكثير من خلالها: ماذا الآن؟

- الآن نقوم بزيارة مهمة ومفيدة جدا..

- إلى أين؟

نهض (ساردوان) قائلا:

- سنزور جميع مطاعم المدينة، لن نستثني مطعما واحدا!



الفصل الخامس والعشرون

دخل رجل مفرط البدانة أحد المطاعم الفاخرة التي اشتهرت بتقديم ألذ وأجود أصناف المأكولات الشرقية والحلويات..

كان يتلمظ بلا توقف، وقد نبه مظهره المبتذل رواد المطعم، فقد كانت ثيابه من النوع غالي الثمن، لكنها تبدت كذلك مجعدة وملوثة ببقع الزيت وصلصة الطماطم و"المايونيز" بطريقة مثيرة للغثيان..

وجه الرجل مكتظ باللحم المترهل، على رأسه بقايا شعر رمادي.. ما إن جلس حتى رفع عقيرته مناديا النادل، فجاء الأخير والاستغراب بادٍ عليه، فقال البدين من دون أن يطلب قائمة الطعام:

- اسمع، أريد كل شيء!

مال النادل قليلا ليسمع أفضل، ثم وبتؤدة تساءل:

- عفوا، كل شيء سيدي؟

- على ما أعتقد!

- سيدي، هل أنت متأكد من أنك تريد كل شيء؟ أعني أثمة ضيوف آتون بعد قليل لمشاركتك الطعام؟



- لا، اذهب واجلب لي كل شيء فقد بدأت أتضور جوعا!

أمازلت واقفا هنا؟!

وهوى بقبضة مكتظة على سطح الطاولة، فانطلق الجرسون مسرعا بحماسة لتحضير ذاك الكم الهائل من الطلبات..

ابتسم البدين ابتسامة مشرقة، متأملا بشغف الطعام الذي يتناوله رواد المطعم الذين رمقوه بنظرات ملؤها الاستنكار، وانتظر برهة قبل أن يهوي بقبضته مجددا وهو يصيح بغلظة:

- أين الطعام بحق الشيطان؟!

بعد قليل ابتدأت أطباق الطعام تتوافد لطاولته، كان الطهاة في المطبخ يعملون بسرعة جنونية، فكلما انتهوا من صنف سارعوا بجلبه له، كما لو كان وحشا جائعا يقدمون له القرابين..

- "أين المحاشي؟ أين "الجاتوه""؟

وبطريقة همجية أقرب للدببة راح يبتلع كميات لا تصدق من الطعام، كميات هائلة قد تصيب فيلا بالتخمة ولربما كفيلة بالقضاء عليه، وراقب رواد المطعم بذعر وجه الرجل الشره وهو ينتفخ، ولحمه المترهل يمتلئ كما لو كان يضخ له الهواء كالإطارات!

- "كيف حالك يا (كاموش)؟"

جمد البدين عن الحركة، وتوقف فمه عن المضغ كما لو كان آلة انقطع عنها الكهرباء فجأة، وفتح عينيه المثقلتين رافعا إياهما لحيث يقف محدثه، ثم لم يلبث أن ازدرد الطعام بصعوبة قبل أن يهتف بدهشة عارمة:

- أنت؟!



رفع (ساردوان) كفا محيية وهو يبتسم ساخرا، وقد وقف (سياف) المندهش خلفه وكأنه يلوذ به من ذلك الوحش الشره..

قال البدين مبتسما بسمة هائلة كأفراس النهر وهو يلعق بنهم أصابعه الملوثة بالشحم والقشدة:

- حقا إنها لمفاجأة، أكاد لا أصدق، لا زلت على قيد الحياة؟

سحب (ساردوان) لنفسه مقعدا، وجلس قائلا بهدوء:

- اطمئن، لستُ لقمة سائغة..

- أكاد لا أصدق، أحبولة ابليسية بأكملها تنبش الأرض بحثا عنك، وأنت هاهنا تجلس ببال مرتاح؟

- كيف حالك وحال معدتك؟

- كما ترى، نعيش لنأكل.. من رفيقك؟

- دعك منه وأخبرني..

تناول البدين قطعة جاتوه حشرها حشرا في فمه وهو يقول بصوت متحشرج:

- أتدري ما يصنع لو علم أنك جالس معي؟ أتدري ما يصنع بي وبك يا (ميتاترون)؟ أنت تعلم عمن أتكلم..

وضع (ساردوان) إصبعا على خده هامسا بوجوم:

- وأنت تدرك ألا سبيل للتراجع عن صفقة تم إبرامها مع سيد الأهواء المنحرفة والأرواح الضالة..

- ما كان عليك تحديه يا (ميتاترون)..

- إذن فأنا في ورطة حقيقية!



- بكل تأكيد، لا أحسدك على موقفك يا (ميتاترون) أبدا، واسمح لي أن أقول بأنك تسببت لنفسك بذلك كله..

- أنت تعلم بأني لا أهاب مخلوقا..

قال (كاموش) بتهكم:

- ما الذي تهابه إذن؟ ما الذي تخشاه أكثر من أي شيء آخر؟

صمت (ساردوان) ناظرا للاشيء، فقط نظرة خواء متبدية في عينيه، لكن لسانه نطق أخيرا بعد صمت دام لدقائق ويده تشير إلى (سياف):

- هذا (سياف سرخس)، (سياف)، أقدم لك (كاموش) الشره..

قال (كاموش) وهو يرمق (سياف) بنظرة محتدة وفتات الطعام يتساقط من شدقيه كالحيوانات الضارية:

- لَمَ جلبت هذا البشري إلي هنا يا (ميتاترون)؟ ما الذي ترمي إليه؟

تناوَل (ساردوان) حبة فراولة غمسها بالقشدة، ثم وضعها في فمه قائلا ببساطة متناهية:

- أين "حفرة الأسرار" يا (كاموش)؟

حدَّق (كاموش) بوجه (سياف) هذه المرة راسما الذهول التام على وجهه المكتظ باللحم، وفي النهاية نطق قائلا:

إذن فهو أنت!

أجاب (سياف) كاتما اشمئزازه من الرجل:

- أعتقد ذلك!

- يا لك من مسكين عاثر الحظ، على العموم سأبذل قصارى جهدي لأجل صديقي (ميتاترون) فقط..

تبسم (ساردوان) قائلا بتهكم:



- لا يا (كاموش)، أنت لا تفعل ذلك لأجلي..

احتقن وجه (كاموش) بشدة حتى صار لدغه بلون الدم، وبحنق قال:

- لا أفهم إلام ترمي يا (ميتاترون)..

- أتظن أن خنزيرًا لا يكف عن الأكل مثلك سيخدعني؟ تظنني لا أعلم شيئا عن ولائك وإخلاصك لسيدك الحقيقي؟

- أتشكك بإخلاصي لك؟

- لا يا (كاموش)، بل أقول صراحة أنك مجرد تابع حقير!

صاح البدين جزعا:

- هل جننت؟!

- لنعد إلى موضوعنا..

تبدى حقد أريب على وجه (كاموش) الكريه، فتوقف عن التهام الطعام كالمحروم قائلا بحدة:

- منطقة الآثار القديمة التي يرتادها سياح كثر..

والآن أتسمحان لي بالعودة لتناول طعامي؟

تبدت حيرة عظمى على وجه (سياف)، فرفع كفه قائلا:

- مهلا، أنا لم..

لكن (ساردوان) خفضها له وهو ينهض من مكانه، وقال للبدين الجشع وهو يرسم على وجهه تعبير ازدراء:

- الوداع يا (كاموش)، أرجو ألا تصاب بعسر هضم!

دمدم (كاموش) من بين أسنانه المصفرة وهو يغمر وجهه بالكريمة المخفوقة:

- أرجو ألا يجدوك سريعا وإلا تسلوا بشيّك!



- لا تقلق..

وهكذا غادرا على عجل، في حين هوى (كاموش) بقبضته الملوثة مرة أخرى على الطاولة صائحا بعصبية:

- أين الطعام بحق الشيطان؟!

وفي الخارج، سار (ساردوان) بخطوات واسعة ومتعجلة كما لو كان متأخرا على موعد هام، وشعر (سياف) بأنفاسه تكاد تتقطع مع مرور الوقت وهو يسعى للحاق به، وعندما طال الصمت بينهما لأقصى درجة صاح عندئذ:

- هل بإمكانك التروي قليلا ؟ قد خرج قلبي من بين أضلعي!

قال (ساردوان) فجأة وقد بدت عليه آيات التفكير العميق:

- (كاموش) الوغد يلعب لعبة ماكرة من تدبير سيده، لكنني سأريهما معا!

- هدئ من روعك.. ومن خطواتك!

قال (ساردوان) مخاطبا نفسه وكأنه لا يسمع ما يقوله (سياف):

- يا للعبة الحقيرة! يا للعبة الحقيرة!

- أنت تتحدث بالطلاسم يا سيد (ميتاترون)، أرجو أن تكون قد لاحظت..

- ما الذي سيمنع ذلك الماكر الأريب من الكذب؟

وهنا نظر إلى (سياف) مستغربا، فوجده ملتصقا بمكانه وقد جذب ذراع (ساردوان) كي يجبره على التوقف، فتساءل بضيق مستعيدا ذراعه:

- ما الذي أصابك؟

- توقف، لدي سؤال مهم للغاية..



- ما هو؟

أشار (سياف) بإبهامه للخلف قائلا:

- ذاك البرميل الأجوف الذي لا ينفجر مطلقا.. ماذا يكون بحق الله؟!

ابتسم (ساردوان) واضعا يده اليمنى في جيبه وقال:

- (كاموش)؟ إنه ما تسمونه ماردًا في لغتكم العربية الجميلة!

- وهل يبدون هكذا عادة؟

- ضع النظارات لتراه على حقيقته..

فعل (سياف) كما طلب منه (ساردوان)، ورمى (كاموش) من بعيد بنظرة مطولة عبر زجاج واجهة المطعم..

لبث مطولا على مراقبته وفمه مفغور قليلا، ومن ثم خلع النظارات ببطء..

ابتلع ريقه بصعوبة وهو يسير بجوار (ساردوان) على الكورنيش الممتد، ثم نطق أخيرا كالمصدوم:

- إنه يماثل خنزيرًا غزير الشعر!!

- إن مملكة الجان معقدة بما فيه الكفاية، فالجان الذين يسكنون البشر تسمونهم أنتم العمار، أما الذين يؤذون البشر من دون الاستحواذ فتسمونهم أرواحا شريرة..

العفاريت أشد قوة من المردة، والشياطين هي الأخبث من بين الجميع، أحيانا يمكن كشف تنكر المردة بصورة بشر، ولكن مع العفاريت يكاد يكون الأمر مستحيلا..

وأنت؟ ما تصنيفك إذن؟ عفريت؟

أجاب عابسا:

- لا أعتبر نفسي عفريتا أو أي مخلوق آخر..

أخرج (سياف) علبة سجائره مجددا، فانتقى لنفسه واحدة وهو يسأل:

- ماذا عن الهر الأسود؟

- قصدك (أنكرمانيو)؟ في الواقع لن تجد جنيا واحدا خرج عن أحد تقمصات صور الحيوان هذه: الوطواط، الأفعى، العقرب، التيس، الذئب، الهر، البومة، الحدأة، الغراب، الكلب، وأخيرا العلجوم.. أتعلم ما هو العلجوم؟

- إنه، إنه..

- جاهل! إنه ذكر الضفدع، في الماضي لم يكن الغراب وحده ما يقف على كتف الساحرة الأيسر، قد تكون بومة وقد يكون علجوما.. ألم تشاهد صورا في الكتب القديمة التي تتحدث عن الساحرات؟

- أنت الذي أرسلت (أنكرمانيو) إليّ إذن مع تلك الأغراض السحرية!

- كان لا بد من تشديد الحراسة عليك..

ثم وباهتمام زائد تساءل (سياف):

- ما حدود قدرات المردة والشياطين والعفاريت؟ أهي كما ذكرت الكتب أم أكثر من ذلك بكثير؟

- بالنسبة لكم لا حدود لقدراتهم، يتحولون لأشكال وخواص عديدة، كما أنهم مثلكم من ناحية الأكل والشرب والتناسل، ومنذ الأزل وهم لا يكفون عن الصعود للسماء ومحاولات استراق السمع لمعرفة ما يتناقله الملائكة عن ربهم..



- أعلـم هذا، وحـين يحاولون الهـرب بمعلوماتهم الثمينة يرسـل الله شهبه عليهم لإحراقهم..

- إلا مـن أراد لـه الله الإفـلات بـما سـمع، وذلـك لحكمـة في الذات الإلهية..

- وأين تقع مملكة الجان؟

- ثمة ممالك وممالك، إنهم كالذباب، ومن مختلف الأشكال والأنواع، لكن الله حجب عنكم رؤيتهم ورؤية ممالكهم..

- أعلم هذا أيضا.. أخبرني أين يقع عرش (إبليس)!

- لماذا؟ أترغب بزيارته؟

- خلق الله فينا النهم للمعرفة!

- يمكنني إجابتك عن السؤال المتعلق بالبيضة والدجاجة..

- فمن الذي جاء أولا؟

- الديك!

عبس وجه (سياف) وهو يتمتم:

- لم أكن أعلم أنكم تهوون التفكه إلى هذا الحد..

- دعك من هذا وأخبرني، ما الذي انتويته الآن؟

- لا أعلـم، لاحـظ أنـك لم تطلعني على مصـيري إذا ما قـررت عدم الذهاب معك..

- لا أنصحك، فلربما أخذك (ابليس) شخصيا لرؤية عرشه!

- حجة مقنعة.. فما الخطوة التالية؟

- ألم تسمع ما قاله (كاموش) الشره؟

- سمعت ولم أفهم..

سكت (ساردوان) كأن على رأسه الطير، فهتف به (سياف) بخشونة:

- ما الذي ورطتني فيه بالضبط؟ أنا بالفعل لم أعد أفهم شيئا!

- إنها حكاية طوية لا أظنك ترغب بسماعها..

- بل على العكس تماما، أرغب بسماع كل شيء من الألف للياء..

داعب (ساردوان) طرف شفته السفلى باسما، ومن ثم تمتم:

- كـفَّ عـن هذا السـخف، كل هذه الأمـور لا تقـدم ولا تؤخر، من المستحسن التركيز بأمرك حاليا..

أنصت إلي، ألا تريد النجاة من قبضة الشرير الأعظم؟

- أظن..

إذن اتبع إرشاداتي ونصائحي دون الخوض في أمور مضيعة للوقت.. اتفقنا؟

- حسـنٌ، سأكف عن الثرثرة وأتبعك مضطرا رغم عدم إيجادي سببا مقنعا يدفعني للثقة بك، أتريدني أن أوقف سيارة أجرة؟

- لا بأس، الآن بدأ التحرك الفعلي..





الفصل السادس والعشرون

مالت شمس حمراء للمغيب في الأفق الأرجواني الباهت، عندما بلغت سيارة أجرة أطلال القُدماء حيث موقع الآثار..

هبط (ساردوان) من السيارة ما إن توقفت، يتبعه (سياف) الذي أكثر من التلفت حوله حتى استرعى شك سائق سيارة الأجرة به، كما لو كان قادما إلى هذه البقعة كي يعقد صفقة ممنوعة من نوع ما!

لكن الرجل اكتفى بالشك، وفيما بعد كان قد نسي كل شيء عنهما وهو يتشاجر مع زوجته في شقتهما الكئيبة بشأن مصروفها الشحيح..

سار (سياف) وراء (ساردوان) بين الأنقاض التي سيعاد ترميمها، والأعمدة ذات الطابع الروماني التي صمدت لمئات السنين، حجارة قديمة في حجارة قديمة، كان يستنكر قيام الحكومة بدفع كل تلك النفقات على ذلك الهراء الذي لا نفع منه سوى اجتذاب السياح اليهود، الذين يأتون دوما للبحث عن تاريخ مخفي غير موجود سوى في عقولهم، وذلك لكي يضعوا أياديهم تدريجيا على أرض هي ليست لهم، ولا مانع من دس بعض الآثار الدالة على وجود شعب إسرائيل في المنطقة، وبالتالي



تصير مطالبتهم بالأرض أكثر ضراوة، كل هذا والحكومة ترمم الآثار لاستقطابهم..

- "أشعر أننا نتصرف كلصوص آثار.."

وتلفت (سياف) حوله وقد غزا التوتر ملامحه عندما همس:

- هل رفاقك هنا؟

- رفاقي؟ أتقصد الشياطين؟ هم ليسوا رفاقي يا أحمق!

- أبإمكانك رؤيتهم؟ أعني ما يفعلون حولنا الآن؟

نظر (ساردوان) حوله قبل غمغمته ببساطة:

- لا شيء، إنهم يحدقون بنا فحسب!

شعر (سياف) بقشعريرة، وقال باحثا عن سيجارة أخرى:

- كيف هي أشكالهم؟

- مسوخ هم، بعضهم بقرون والبعض الآخر أصلع الرأس، بعضهم غزير الشعر كالماعز والبعض الآخر خفيف الشعر..

بعضهم بخطم والبعض الآخر بفجوات بدلا من الأنف والفم، ألوانهم متراوحة ما بين الرمادي والأسود والحمرة الحنائية..

فجأة قبض على شيء ما في الهواء، فوثب (سياف) للخلف صارخا:

- ماذا؟!

- أحدهم يحاول الانقضاض عليك محاولا الاستحواذ على بدنك، لكنني منعته!

صاح في جنون متراجعا للوراء أكثر:

- إياك أن تدعه يذهب، اقتله لو لزم الأمر!

- لا تخف فأنت معي..



وبصرامة عاتية شرع يهز قبضته يمنة ويسرة، فسأله (سياف) متعجبا:

- ما الذي تفعله؟

- أعلمه الأدب كي لا يحاول تكرار محاولته مرة أخرى!

هنا فهم (سياف) الأمر، فمدَّ يده، وخفض بها قبضة (ساردوان) قائلا بنبرة جافة:

- دمك خفيف.. إذا ما كان ثمة دم يسري في عروقك!

ابتسم (ساردوان) وواصل السير دون تعليق، وتبعه (سياف) مستعيدا حذره للبحث عن تلك الحفرة..

- "الرؤية بدأت تتعسر علي.."

وانتظر ردة فعل (ساردوان) إزاء ما قاله، لكن الأخير واصل بحثه متجاهلا إياه.. شعر (سياف) بالضيق والمهانة لذلك، فاكتفى بتتبع ظهر (ساردوان) تاركا الحبل على الغارب لأفكاره ومطلقا العنان لخواطره..

سمع (ساردوان) يقول له محتدا:

- انتبه جيدا لخطواتك، لا تدع بصرك يغيب عن الأرض..

لكن (سياف) تجاهل النصيحة مع مرور الوقت، وظلَّ يتابع ظهر (ساردوان) وهو يتثاءب ضجرا..

لم يشعر إلا والأرض قد مادت به، ووجد نفسه يهوي في حفرة عميقة وهو يطلق أعتى صيحات الفزع!



الفصل السابع والعشرون

توارى القمر خلف غيوم رمادية كئيبة في لوحة خرافية كابوسية..

كان من الواضح أن سكان هذا المنزل قد هجروه، كل شيء فيه يؤكد رحيلهم منذ مدة طويلة، فالأثاث غارق في الغبار، وشباك العناكب في كل شبر وزاوية، لا كهرباء لكن يوجد ماء، ثمة كذلك طعام وشراب في ثلاجة صغيرة وجديدة!

ذهب إلى المغسلة في الحمام ليبلل وجهه المرهق بالماء كي لا يغفو.. لسوء حظه وجد مرآة! فهو يكره المرايا كثيرا، تماما كمصاصي الدماء في الروايات..

كما أن هنالك دماء، دماء جافة على البلاط الذي كان أبيض اللون في الماضي!

غسل وجهه من صنبور المياه الباردة، ثم خرج ليجلس على الأرض في الصالون..

لكن طرقات مفاجئة على باب المنزل جعلته يهب واقفا وقلبه يكاد ينتزع من مكانه.. نظر إلى الخلف لاهثا وهو يشتم في سره المعتوه الذي

يطرق بذلك الصخب المفزع، ثم خفَّ باتجاه الباب ليجده بلا عين سحرية، فهمس قائلا:

- من؟

لا أحد يرد مع الأسف..

- "من؟!"

ظن بادئ الأمر أن الطارق قد رحل، لكنه سمع صوتا قريبا للهمس يجيب:

- افتح..

كان الصوت معروفا لديه، ورغم ذلك تساءل بتوتر:

- ومن أنت؟

ران صمت مريب المكان للحظة..

- "افتح يا (سياف)، إنه أنا!"

مدَّ يده للمقبض، لكنه توقف برهة حين لمح فرجة أسفل الباب، فتجاهل النداء المتردد والطرقات المحتدة، ومال بجسمه ووجهه كي ينظر من تلك الفرجة الضيقة..

- "أتريدني أن أهلك من البرد القارص؟!"

كان الصوت غاضبا هذه المرة، لكنه تجاهل ذلك وهو يلصق رأسه بالأرض.. وينظر!

رأى فردتا حذاء فاخر من صنف "غوتشي"، وواحدة من الفردتين - اليمنى تحديدا- كانت تنقر الأرض بنفاد صبر..

لم يدر كيف تذكر في تلك اللحظة حكاية الذئب والعنزات السبع التي سمعها في طفولته.. عجيب تذكره لشيء يخص طفولته، كانت ذكرياته



عنها مبهمة كضباب يغلف الشوارع.. لا شيء عدا كوابيسه القديمة بشأن الستارة الخمرية المخيفة!

شعر بخوف مبهم لما ذكر تفاصيل قيام الذئب بطرق باب منزل العنزات، مدعيا أنه أمهم كي يفتحوا له ليلتهمهم..

- "ما الذي تنتظره؟!"

حرر رتاج الباب، وبروية فتحه ليجد (ساردوان) واقفا ينظر له بضيق واضح، ويده تتسلى بأرجحة كرسي هزاز كان أمام المنزل!

خطا للداخل قائلا:

- ما بالك؟ لَمَ كل هذا التأخير على الباب؟

- إنه الحذر، استيقظت فوجدت مذكرتك هذه..

ومدَّ يده بورقة دوِّن عليها بخط جميل ومنسق عنوان المنزل، مع ملحوظة أن على (سياف) التسلل للداخل لعدم وجود مفتاح!

ابتسم (ساردوان) متسائلا:

- وكيف تمكنت من الدخول؟

- تسلقت ماسورة مياه حيث نافذة مفتوحة كنت قد لمحتها.. اسمع، أكاد أقسم بأنك على علم بما أفكر فيه الآن!

- ألا وهو؟

- لا تتذاكى علي، لا بد وأنك تعلم أن..

- أن ماذا؟

- أريد أن أفهم أولا لَمَ هذا المنزل تحديدا؟ لماذا اخترته لملاقاتي فيه؟ لماذا المنزل الذي راودَني في كوابيسي من قبل دونا عن سواه؟ لماذا؟!

- أخبرني أنت أولا عما تراه في كوابيسك عن هذا المنزل..



- لقد وقعت جريمة شنعاء هنا، أليس كذلك؟ ما حكاية بقعة الدم التي في الحمام؟

جلس (ساردوان) أرضا، وقال معطيا ظهره للجدار وأصابع يديه متشابكة على ركبتيه:

- هل تفهم القوة الغاشمة التي تدفع الناس للقتل؟ ما الذي يجبر يدًا لتهوي حاملة الموت على جسد حي كي تسلبه روحه؟ وما الأعذار؟ تشاجرت مع زوجتي وشطرت رأسها لأنها نسيت وضع الملح في الطعام! ذبحت زوجي من أجل إرضاء عشيقي!

تخيل أن الجريمة التي وقعت هنا كان دافعها الحب؟

لا تندهش، فالحب يدفع الناس للقتل أحيانا..

كانت العائلة القاطنة هنا مكونة من أب وأم وبنت كبرى وصبي صغير.. الفتاة كانت شقراء فاتنة، لذا وقع أحد الشبان الوسيمين في هواها بسهولة، وقد أحبته هي أيضا، لكن والديها عارضا تلك العلاقة بشدة..

وفي ليلة الشؤم تلك تسلل العاشق إلى حجرة محبوبته بذات الطريقة التي تسللت أنت بها للداخل لمطارحتها الغرام، ولكن وأثناء ذلك دخلت الأم الحجرة فجأة، وقبل أن تصرخ هبَّ الشاب واثبا نحوها وهو يشهر مطواته التي خطفها من سرواله المنزوع بسرعة البرق، وقبل أن تصنع المرأة المصعوقة أي فعل كان قد ذبحها!

لم يرتجف الفتى ولم ترتجف فتاته، شعرا بانتشاء شيطاني دفعهما للتمدد جنبا إلى جنب بأيدٍ متعانقة كي يفكرا بترو بالخطوة التالية، فعرضت الفتاة على حبيبها قتل الأب التعس كبداية!



ولم يتردد الشاب، بل سارع على الفور إلى تنفيذ الجريمة المروعة!

أتعلم ما الذي أصاب الفتاة عندما ولجت حجرة والدها ووجدت المطواة القاتلة مغروزة في الفقرة السادسة أو السابعة من عموده الفقري؟ لقد ارتمت في أحضان فتاها مقبلة إياه كأنهما يمثلان فيلما رومانسيا حالما!

ابتلع (سياف) لعابه بتعسر، ورغم معرفته الإجابة مسبقا إلا أنه تساءل بنبرة مبحوحة:

- والصبي؟
- هل نسيت الحمام؟

بحث (سياف) عن سجائره، وقال بعصبية وجفنه يرف بلا توقف:

- هذا أبشع ما سمعت في حياتي!
- ألهذا تدمر حياتك بالسجائر؟
- كفَّ عن سبر الأغوار البشرية ومحاولات منعي من التدخين! وأطلعني على ما أصاب الفتى وفتاته بعد ذلك..
- ألقي القبض عليهما بزمن قصير، وقد اعترفا بكل شيء، الفتى أعدم شنقا، أما الفتاة فقد أدخلت مصحا للأمراض العقلية..
- كان يتوجب عليهم قطع رأسها بلا رحمة..
- ربما، ولكن من المحتمل أن تكون مجنونة حقا..
- يا له من كلام! لقد حرضت فتاها الوغد على قتل أسرتها!
- فإن لم يكن ذلك جنونا، فما يكون إذن؟
- سمِّه شيطانية، عربدة الشر.. كله إلا الجنون! لأن فيه التبرير لجرائمها!
- لستُ حكما ولا أحب أن أكونه، من الأفضل لك أن تنسى كعادة البشر الأزلية..



- أعلم أنك تحتقر فينا جرائمنا المروعة، لكننا عباد ضعفاء، مجرد عباد ضعفاء لا محالة..

- المشكلة أنكم لا تدركون مدى ضعفكم حتى..

أشعل (سياف) سيجارته، ونفث الدخان في الهواء قائلا بمرارة:

- أشعر بالأسى، بالخواء، بوهن وضعف لا يحتملان.. أشعر بأن الخالق ينظر إلي، وبرغم ذلك لا تختلج عضلة واحدة في جسدي، كأنه الخواء الروحي بأم عينه، ترى هل فقدت إيماني؟

- ذلك متوقف عليك الآن..

بقيا على صمتهما مدة، حتى بعد أن أتم (سياف) تدخين سيجارته، فقال له (ساردوان) عندئذ:

- والآن وداعا..

- إلى أين؟!

سار (ساردوان) نحو الباب قائلا دون أن يلتفت:

- قمت بما يتوجب عليَّ وأكثر.. والباقي عليك أنت!

صرخ (سياف):

- لكنني لا أعلم ما يتوجب علي فعله! لمَ أحضرتني إلى هنا؟!

تجاهله (ساردوان) مواصلا سيره حتى خَرج، وعندئذ غلفه الضباب الرمادي حتى تلاشى كأن لم يكن..



الجزء الأخير



الفصل الأخير

- «من؟ من هناك؟!»

الستارة الخمرية اللعينة!

لهذا شعر أن الدار تبدت لناظريه وذاكرته مألوفة!

- «ما الذي أتى بي إلى هنا؟!»

قالها بفزع خالص..

استوقفته الستارة الخمرية، كانت مغبرة ذات أطراف بالية من فرط قدمها..

- «تعال!»

خيِّل له سماع نداء غامض يدعوه للبحث وراء الستارة، هكذا دنا ببطء وحذر ورهبة كي يرى السر الكامن وراء تلك الستارة، لم تحجب نافذة ولا حتى بابا، كانت موضوعة بطريقة أقرب للديكور، في زاوية الدار!

- «أخيرا!»



لطالما كره تلك الستارة اللعينة، في مرة خرج منها مهرج سيرك قبيح، وفي مرة أخرى يد مسخ غزيرة الشعر حاولت الإمساك به، وقد خيِّل له في إحدى المرات سماع نواح طفل يتصاعد منها!

- «تعال!»

في الكابوس أبصر الدم الغزير المنبعث من أسفل الستارة، شعر أنه طفل خائف من جديد، واستغاث بنبرة ضعيفة كي ينجده أحد، لكن..

- «أخيرا!»

وببصر مشوش كالمحشش أو السكران مدَّ أنامل مرتعشة.. لم تمهله الستارة اللعينة، انزاحت من تلقاء نفسها..

وكان المختبئ وراءها هو (جاد الجرجوف) بشحمه ولحمه!!

كان يرتدي ثيابا سوداء اللون، وقد علق على صدره قلادة ذهبية، تمثل نجمة خماسية مقلوبة لكي تبدو كرأس الكبش، دار رأس (سياف) قائلا كالمنوم وهو يتابعها بناظريه:

- الكابوس!

همس (جاد) بفحيح ساخر:

- لا كوابيس بعد الآن.. الحقيقة فقط يا (ساردوان)!

ضحك (سياف) بثمالة هامسا:

- (ساردوان)؟ أين (ساردوان)؟!

- واقف أمامي بعد طول غياب! أخيرا التقينا يا (ساردوان)!

أم تفضل مناداتك ب(ميتاترون)؟!

- أنا (سياف).. (سياف سرخس).. وأنت مخبول!

مجرد مخبول.....

صال (جاد) ببصره وجال أرجاء الدار قائلا بنفس الهمس:



- إذن هنا ترعرع (سياف سرخس)، في ذات المكان الذي اقترف فيه (ساردوان) كبرى جرائمه.. تغطية رائعة يا (ساردوان)!

صرخ (سياف) بثورة:

- أنا (سياف) ولستُ (ساردوان)!!

- أنت عبدي يا (ساردوان)، عبدي الأزلي الذي طوقت عنقه يوما بقيد كالكلاب، واليوم، اليوم فقط.. استعدتك!

ضحك (سياف) حتى اهتزت أوصاله، وبسخرية مريرة دمدم:

- أنت مجنون!

تقدم (جاد) بخطوات رشيقة، وببطء قال مراقبا سقف الدار:

- لابد وأن أعوام الحياة كبشري قد أنستك ماهيتك الحقيقية يا (ساردوان).. نسيت اليوم الذي تصافحنا فيه؟ كانت ليلة ماطرة، وقد استدعيتك منتصف الليل فلبيت النداء..

كان هذا قبل سنوات طوال، بعدد شعر الرأس، كنت..

- أنا (سياف)!

- أتذكر العهد يا (ساردوان)؟ اتفاقنا؟ أنا أطلب وأنت تنفذ! كنا ثنائيا رائعا يتكون من بشري..

ورفع رسغه، فلمح (سياف) وشما لنجمة خماسية مقلوبة كرأس الكبش!

ثم رمقه بنظرة ذات معنى وهو يهمس بتخابث:

- وشيطان!

- أنا..

- بالطبع لم يدم الأمر لدى ظهور الشيخ (صالح) الشاب آنذاك! كانت مهمته عسيرة عندما طلبوه بشأن تلك الفتاة المجنونة!



توقف (سياف) عن ترديد عباراته الواهية، وبرهبة تساءل:

- فتاة؟!

ورأى شفاه (جاد) تتحرك، كان يسرد الحقيقة، الحقيقة التي بات (سياف) - بجزع - يدركها الآن.. الآن فقط..

«هل تفهم القوة الغاشمة التي تدفع الناس للقتل؟ ما الذي يجبر يدا لتهوي جاملة الموت على جسد حي كي تسلبه روحه؟ وما الأعذار؟»

ماذا عن شيطان سكن روح الفتاة؟

«لم يرتجف الفتى ولم ترتجف فتاته، شعرا بانتشاء شيطاني دفعهما للتمدد جنبا إلى جنب بأيد متعانقة كي يفكرا بترو بالخطوة التالية، فعرضت الفتاة على حبيبها قتل الأب التعس كبداية! ولم يتردد الشاب بل سارع على الفور إلى تنفيذ الجريمة المروعة!»

أمر طبيعي.. ألم أقنعها أنا بقتل ذويها؟!

قال (جاد) مشعلا سيجاره:

- أتى الشيخ (صالح) - وكان لا يزال شابا في تلك الأيام - للمصح بدعوة من صديقه الطبيب كي يعاين الفتاة، وبكفاءة أخرجك منها! كنتَ ضعيفا يا (ساردوان)! ضعيفا ونادما لدرجة الاستسلام لنصائحه وتعاليمه!

- قل ورائي: «أشهد أن لا اله إلا الله..»

-- ترى هل يغفر الله لي يا فتى؟

-- تب فإن الله يتقبل زلاتك وزلات غيرك..



خضعتَ ل(صالح) وهربتَ من اتفاقنا، صرتَ تابعا لإله غيري!
لكن وقبل أن تفعل، كان لابد وأن تهرب من بين أصابعي، فقمتَ بأمكر حيلة للإفلات مني!

(أنكرمانيو).. قوتي الآن مقسمة في أربعة أغراض.. المشعوذ اللعين نال أقواها، لكنه لن يهدأ حتى يعثر علي ويستولي على قوتي بأكملها، أنت صديقي رغم أنني مسلم الآن وأنت كافر..

سأختفي عن الأنظار، وأتخذ شكلا بشريا بما تبقى لي من قوة، لكنك ستعثر علي، وعندئذ تعيد إليّ الأغراض التي ائتمنتك عليها، القلم وفتاحة الخطابات والنظارات..

رفع (جاد) بنصره الأيسر، فالتمع فص خاتم الزمرد الأسود!

- «كنتُ محظوظا بحصولي على خاتمك هذا! لكن لا! المال لم يُرض طموحاتي البتة.. بفضل هذه القوة صرتُ سيدًا! بهذه القوة قتلتُ (سراج عدوان) بأسلوب أثار جنون رجال الشرطة! وبها دفعتُ فتى مخبولا إلى قتل شيخك المأفون!

أنت شاهدت بزوغ نجومية (جلنار) بأم عينك، لولاي لكانت غائصة في أعماق الحضيض، صفقة بسيطة جعلتها نجمة مرة أخرى، صفقة تمت بيننا!

كنت أتوق لاستعادة قوتي الحقيقة.. لاستعادتك يا (ساردوان)!"

- أنا.. لستُ.. (ساردوان)!

(أنكرمانيو).. بدون هذه الأغراض أنا لا شيء، في القلم وضعت قوتي في العثور على الأشياء والأشخاص، في النظارات وضعت قوة إبصاري

لبني جنسي، في الخاتم الأسود وضعت قوتي في إتيان الأفعال الخارقة كالتحليق والولوج لأعماق الأرض والمحيطات وغيرها من الأعاجيب..

لكن لا شيء أهم الآن من فتاحة الخطابات، فهي تستدعي شخصيتي الأخرى التي شطرتها منذ زمن، شخصية (ساردوان)! الوحيد الذي سيعلم كيفية اطلاعي على الحقيقة، ومساعدتي على الهرب من قبضة المشعوذ (جاد الجرجوف) إذا تمكن من إيجادي!

سيمارس معي بعض ألاعيب الضلال كي يحاول استعادتي من خلاصي البشري لنصير معا من جديد، فـ(إبليس) لن يسمح لي بالنجاة بعد أن كنت مندوبه المخلص، قد يحاول قتلي وقد يحاول استعادتي، لكنني لن أمكنه من عنقي، ولن أمكن (جاد) منه أيضا!

لن ينقذ (ساردوان) سوى (ساردوان)! سأستعيد ذاكرتي وقت اللزوم متى هبطت جوف "حفرة الأسرار"، (ساردوان) سيساعدني، وعندئذ ينتهي البشري الذي تقمصت دوره، ويبدأ عذاب البحث عن شخصية أخرى هربا من قبضة المشعوذ الشيطان!

أخرج المشعوذ من جيبه منديلا مطويا بعناية، فرده على كفه، وإذ بداخله مسبحة مصنوعة من حجر «الأبسيديان» الأرميني الأسود الممتزج باللون البني!

- «كان هذا الشيخ اللعين هو السبب!»

ومزق بحقد المسبحة، فتناثرت حبيباتها و(سياف) يرقب تساقطها بكراهية..

كان الرجل الذي أذاه طيلة حياته قبل رحيله، وأذاقه التوجس والهواجس المروعة من المستقبل المجهول، راقدا على سرير مريح ضخم..



اقترب منه (سياف) حانقا ومتهيبا بآن واحد، دقق في ملامحه ذات التجاعيد الغائرة كأحافير بالغة القدم، وأنفه المدبب الشبيه بأنوف السحرة في قصص الأطفال، قبل إدراكه أن الرجل قد وافته المنية أخيرا.. لم يحزن ولم يسعد، شعر فقط بخواء عميق..

اقترب منه بتمهل، ثم همس له وكأنه يخشى إيقاظه من سباته الأزلي:

- أيها الظالم التعس! لَم صنعت بنفسك وبي ما صنعت؟

لقد وجدت خلاصيَ، ولربما لم يفت الأوان كي تجد خلاصك أنت الآخر رغم جرائمك المروعة..

فتح الرجل عينيه بغتة، ونظر بمقت إلى (سياف) قائلا:

- أنا أحتضر!

وضحك بخشونة قائلا وهو يرفع إصبعه بالخاتم:

- لكن مع هذا سأعود يافعا من جديد!

- لن أمكنك!

- أنسيت؟ لن تتمكن من انتزاعه إلا بموتي!

- وأنت لن تتمكن من استخدامه كي تعود!

إذا وجدني فسيستعيد سيطرته علي، وسيطوق عنقي بقيد العبودية كي يحملني على تنفيذ جرائمه، تماما كما فعل حين دفعني إلى استحواذ عقل تلك الفتاة.. لقد جعلتها تصنع ما يشيب لهوله الولدان!

أغمض (جاد) عينيه هامسا:

- راقبني يا (ساردوان).. فقط راقبني.. إن سيد الأهواء المنحرفة في صفي، وسيساعدني كي أظفر بك!

سأعود!!



في تلك اللحظة دقت ساعة المنزل سوداء اللون معلنة حلول الثانية عشرة منتصف الليل، كان الرنين رخيما عتيقا، شعور بالرهبة اعترى نفس (سياف) وهو ينصت إلى إيقاع القدماء الذين اندثروا، لكن بصره تعلق بعيني (جاد) الثابتتين..

ردد (جاد) عبارات مخيفة بلغة عجيبة، لكنها تبدت مفهومة لأذني (سياف)..

اصفر وجهه وهو يهوي على ركبتيه، ومن نقطة مضيئة وضئيلة بزغت فجأة من العدم، انقض بياض كهزيم الرعد على عنق (سياف) مطوقا إياه بطوق عجيب، فبدا ككلب الحراسة المذعن!

رفع (سياف) وجها ذابلا وقد انقلب البياض في مقلتيه سوادا حالكا، ومن فم مفغور امتلأ أنيابا وأسنانا متكاتفة صرخ كمصاص دماء أبصر الصليب:

- أنا لن أذعن لك!!

صرخ (جاد) بتوحش مريع:

- بل ستذعن يا (ساردوان)! لابد وأنك تعرفت المقطع الذي تلفظت به.. إنه مستمد من مخطوطة (أغاتة)! والتي ظن الجميع أنها تطرد الشياطين.. لكنها في الحقيقة تجعلهم يذعنون للمشعوذ!

والآن، وقد استعدتك من جديد، ستصير أنت وقوتك بأكملها ملكا لي، ولن تتمكن من الإفلات مرة أخرى.. أعدك!

ارتجت أوصال المنزل وكأن زلزالا قد حل، وأطلق (سياف) آخر وأعتى صرخاته المنكسرة مستسلما لقوة المخطوطة الرهيبة.. لقد أفلت مرة، ثم عاد مرة أخرى ليعمل مندوبا لصالح الشيطان..

كان يُسائل نفسه بألم وذل عن كنه الشيطان الحقيقي بينهما!



صدر للكاتب وائل رداد:

- رواية: «سأعطيك الحلوى شرط أن تموت»: شركة المطبوعات للنشر والتوزيع - لبنان
- رواية: «موت سريري»: دار أكتب - مصر ط١/ منشورات ضفاف - لبنان ط٢
- رواية: «مذكرات الجرذان الغريقة»: ممدوح عدوان - سوريا
- رواية: «سيمفونية وادي الظلال»: سندباد للإعلام والنشر - مصر ط١ / مداد للنشر - الإمارات ط٢
- رواية: «جنازة الملائكة»: دار رواية - السعودية ط١ / دار سما - الكويت ط٢
- رواية: «أمير وألف عدو»: دار اليمام - الكويت
- «سيناريو الظلام: أمير الكوابيس»
- «سيناريو الظلام٢ المحقق السري»

■ ترجمات: «القصص المنسية»:

- «سجين الجحيم»- كلايف باركر - دار سما - الكويت
- «كريبي باستاز: أساطير الانترنت المرعبة»: دار اليمام - الكويت

■ روايات:

- «المصعد رقم٧"ج١
- "التابع الحارس"ج٢
- "الهائمون"ج٣
- "مندوب الشيطان"
- "ملاك جهنمي"
- "الزيبق"
- بلاتينيوم بوك - الكويت / سما للنشر والتوزيع - مصر

E Mail: waelnovel@gmail.com


ساحر الكتب


سما
للنشر والتوزيع

ساحر الكتب

مندوب الشيطان

وائل رداد

مرحبا بكم في عالم غامض وقاتم، حيث الحياة معقدة أكثر من ذي قبل، والفرد لا يستطيع العطس دون مندوب..

إذا عجزت عن توظيف واحد فلا تقلق، شركة «مندوبك» العالمية تعمل على توفير المندوب الملائم لحل مشاكلك المالية والأمنية والطبية، وإجراءات الزواج والطلاق وحتى الجنازة، وغيرها من مشاكل الحياة المستعصية..

لكن في هذا العالم المتخبط، حتى الشيطان شخصيا بحاجة إلى مندوب لإنهاء معاملاته وضبط أوراقه وكشوفاته..

فمن الأقدر على تولي هذه المهمة المخيفة؟

تصميم الغلاف



سما

المجموعة الدولية للنشر والتوزيع

